محامي في قفص الاتهام

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 2933 / 2020

الترقيم الدولي: 0 – 455 – 838 – 977 – 978

الكتاب: محامي في قفص الاتهام

المؤلف: علي عمر خالد

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

محامي في قفص الاتهام

رواية

علي عمر خالد

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إهداء

إلى كل مظلوم ومغبون ضاع حقه في هذه الحياة ولم يجد من ينصره ويحنو عليه لضعفهِ وفقرهِ وقلة حيلته.

أقول له: لا تخفْ ولا تحزنْ فإن الله سسيسخّر جندًا من جنوده ليرد لك ما سلبه الطغاة منك.

علي عمر خالد

تنويه

قد تكون بعض الأسماء والمواقف الواردة في هذا العمل تتشابه والواقع، إلا أنها من وحي خيال المؤلف ولا تمت للواقع بصلة.

علي عمر خالد

كنت أعيش في عمارة عتية قديمة مر عليها الزمن دون أن تسقط أو تتهاوى، ساترة بجدرانها الممزقة من عاش فيها من البسطاء الذين هجرهم ترف الحياة .

أُجبرَ كل من عاش في هذا البناء على البقاء مرغم في انتظار القدر أو ساعة الأجل على أمل في الظفر ذات يوم بتغير مسار الحياة الذي رأوه يلوّح من حولهم في صور القصور والشقق الفارهة التي تطالعها أعينهم عبر شاشات التلفاز في بعض الأفلام أو المسلسلات أو الإعلانات.

كان الأمل بمثابة حلم راود كل من عاش تحت أو على خط الفقر، فلولا الأمل ما كانت الحياة باقية مستمرة بقاء الدهر بأمر من العلي القهار القادر على تغيير الحال من المحال إلى أحسن حال.

شيدت العمارة من خمسة طوابق وناصيتين على شارعين أحدهما مزدحم بالمارة والأخر صامتًا صمت القبور، فكان الجانب الحيوي من البناء مليء بمجموعة من المحال التجارية التي تظل مزدحمة حتى يُسدل الليل ستاره فيحوّل أركانها لقبر كبير يعيش به أحياء.

وقد وصفت العمارة بالقبر لأن من يدخلها لأول مرة يصاب بضيق الصدر لكثرة الشروخ التي مزقت جدرانها تارة والصمت الذي

سيطر عليها في بعض ساعات النهار وأرجاء الليل تارة أخرى، وتبدأ ساعات الصمت عند عودة أرباب البيوت من أعمالهم لينام كل من في العمارة شاءوا أم أبوا توفيرًا للراحة والسكينة لمن أرهقتهم الأيام من أجل توفير لقمة عيش حلال تسد أفواه من تكفلوا برعايتهم.

كان أبي موظفًا بسيطًا مستور الحال يقضي ساعات الليل والنهار في عمله الطويل لقضاء حاجات بيته الذي لم يكف عن الطلب والسؤال، ورغم صعوبة الحياة إلا أن حياتنا كانت أفضل بكثير ممن عاش في فقر مدقع كمن قست عليهم الحياة.

كانت حياتنا بسيطة فهي لا تلامس الترف والبزخ ولم تغوص في أعماق الفقر، فكانت يسيرة إلى حدٍ ما لأننا توسطنا المنطقتين.

البناء الذي عشت فيه قديم به ممرات فسيحة بين الوحدات السكنية تعيش فيه الأسر القاطنة كأسرة واحدة فجميع البيوت مفتوحة على مصرعيها لآخراها، فكانت حياتهم كحياة شخص واحد على عكس ما آلت إليه الحياة الآن، فبعد أن كان الجار كالأخ أصبح كالعدو الماكر الذي يتربص بك لينتقم لحقده الذي يكنّه لك بسبب وبدون سبب.

أغلب القاطنين في البناء من العاملين في المصانع المطوقة لمدينتهم الكبيرة، وأغلب النساء ربات بيوت يعملن على راحة

أزواجهن وأطفالهن الذين يلعبون في أمان بعيدًا عن الغرباء الذين لا يدخلون البناء إلا لمقصد يعلمه الجميع، فلا مكان لغريب فيه.

كنت أشارك أقراني اللهو واللعب الذي وجدت فيه متعة الطفولة النقية التي لم تلوثها الحياة، وكان أقراني أخوة لي إلا واحد منهم كنت أبغضه لحقده الذي كان يبديه معي أثناء اللعب كوني أمهر وأخف منه خفةً ورشاقة، فهاني طفل قصير مكير يرى نفسه من علية القوم كون والده يعمل ضابط، ورغم عمل والده بالشرطة إلا أنهم كانوا مثل باقي الأسر رقيقة الحال وإلا ما سكن مسكن البسطاء.

كان هاني يضربني بعنف كلما غازلته بالكرة ممررًا إياها بين قدمي بسهولة ويسر، فما كان منه إلا أن يضربني بعنف ليلحق بي الأذى حقدًا، ورغم ألم الضرب إلا أنني كنت سعيد بمهاراتي التي تفوقت عليه.

لم تكن الكرة فقط سبب حقد هاني ولكن تفوقي في الدراسة كان سببًا قويًا لنماء شجرة الحقد التي زرعها في صدره وكبرت وربت مع مرور الأيام.

لا شك أن حياتنا كان بها بصيص أمل كنورها الخافت نحو المستقبل المشرق الذي كان ينتظرنا، والذي لمسناه من خلال آيات الله في الصبر وقصص الأنبياء في الجلَد التي كان يقصها

علينا أبي في جلسات السمر التي كانت تطول في ليالي الشتاء وتقصر في الصيف.

لم أنسَ تلك الأيام التي كنا فيها نتحلق حول أبي وهو يقص علينا القصص المليئة بالعبر والمعلومات الجديدة على مسامعنا والتي علمتنا ما جهلناه عن الماضي والحاضر والمستقبل.

كان أبي حافظًا لكتاب الله واسع الثقافة كثير القراءة في شتى أنواع المعرفة الدينية والعملية والثقافية، فكان يصيبنا من ثقافته قدر كبير.

تعلمت على يد أبي الإيمان الراسخ بوحدانية الله وفضله وعلمه وقدرته ورحمته التي وسعت كل شيء، كما تعلمت الصبر على البلاء من خلال قصص الأنبياء والتابعين والصالحين من عباد الله المؤمنين، من هنا تشكلت شخصيتي وتربيت على الحلال والبعد عما يغضب الرحمن .

كنت في سن السادسة عندما كان أبي يقص علينا قصة نبي الله سليمان بن داوود الذي صعدت روحه إلى خالقها امتثالًا لقضاء الله وقدره وهو يتوسط ملكه الفسيح وأمامه خدمه من الجن الجادين في عملهم خشية من نبي الله الذي سخر الله له الريح والجن وعلمه منطق الطير، وهم لا يعلمون بقدوم أجله الذي حان، ليبين الله للخلق أن الجن مخلوق كباقي الخلائق لا يعلم إلا ما يسره الله له مثله مثل الإنسان والحيوان والملائكة.

توقف أبي عن الحديث فجأة فظننت أنه يستجمع أفكاره المشتتة لاستكمال حديثه الشيق أو أنه أراد أن يمنح نفسه الراحة بعد إرهاقه أثناء الحديث والذي ظهرت ملامحه على التعرق الذي تصبب من جبينه، لكنها كانت ساعة القدر قد حانت ليموت أبي كما مات نبي الله سليمان وسط ملكه.

مثَّل موت أبي.. فاجعة غيَّرت مجرى حياة البيت الذي كان لا يعرف للحزن طريق، فلازمه الحزن بعدها لعقود بأمر الله الذي منحنا الخيار في بعض الأحيان والامتثال لقدره في أحيان أخرى كالموت الذي يطرق الأبواب دون استئذان أو مَنح مَن حلَّ أجله الاختيار ما بين البقاء أو الانتقال بأمر الله إلى عالم آخر لا يعلمه إلا الله.

لهتني لحظات الطفولة قليلًا عن موت أبي لكن تلك اللحظات لم تدُم طويلًا، وفجأة توقفت عن اللعب وهجرت أقراني وكل من في الحياة بعد أن وقعت الواقعة التي دمرت كياني وحطمت أحلامي.

اتخذت على إثرها غرفتي صومعة كراهب انعزل بمحض إرادته عن متاع الحياة طواعيةً لا كرهًا، فكان الخروج منها لم يكن إلا للضرورة القصوى كدخول الخلاء لقضاء الحاجة وليس الاستحمام.

منذ هذا الوقت أصبحت كساعة الحائط التي تلفت بطاريتها فأوقفتها عن الحركة فظلت عقاربها واقفة عاجزة عن الحركة بعد أن غاب عنها من يحرك عقاربها الساكنة .

ظن الجميع أن موت أبي السبب بعد أن أيقنت وقت الفراق لكن الأمر كان أكبر وأعظم من الموت والفراق، والفارق بين الحالتين أنه عند الموت تتوقف الحياة لكن حياتي ظلت مستمرة باقية وأن تمنيت الموت ورجوته لكنه أبى أن يرحمني وتركني وحيدًا أئن من الألم الذي أصابني.

تدخَّل بعض الأهل محاولين إخراجي مما أنا فيه لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل الذريع، حتى أن بعض الجيران أحضر لي أحد المشايخ بعلوم الجان بعد أن شك الجميع أنه أصابني مس من الشيطان .

حضر الشيخ وأطلق البخور الذي ملأ أركان الغرفة وأخذ يتمتم ببعض الكلمات الغير مفهومة ولسان حالي يقول أني سليم البدن معافٍ من المس والشيطان مؤكدًا على ما تعلمته من أبي، أن الجان مخلوق محدود القدرة ولو كان يملك ما فاق خلق الله لعلم بموت نبي الله سليمان.

عجز الشيخ على فك طلاسم الصمت كبلت فمي كالسلاسل الحديد فقيدته وربطته بإحكام ليعجز تمامًا عن الكلام، وكنت أقول في نفسي: كيف لي أن أتكلم عن شيء حطّم أركان فؤادي وجلعني أستمر وأعيش في حياة أبغضها.

انتهى الشيخ من جلسته وأعطاني كتيب صغير يحتوي على بعض الرموز والحروف المخطوطة باللون الأحمر والتي لا يعلمها ولا يفك طلاسمها إلا من كتبها لعلمه بأسرارها، بعد أن شعر الشيخ

بالحرج تعلل بعِظم الأمر وارتباطه بملك من ملوك الجان الذي لازمني ورافقني رغبة منه في مساهراتي، لكنه لجأ كغيره لحيلة للهروب مما وقع فيه، فطلب مني أن أضع كتيبه تحت وسادة رأسي عندما أنام وأنتظر لبضعة أيام حتى يفتك الارتباط بيني وبين الجان بفعل كتيبه الطارد للشيطان.

لم يغير الكتيب الصغير الحال لأنه من الصعب والمحال أن يتغير شيء خلفته الأيام.

لم أبالِ بأي شيء في تلك الفترة الموجعة إلا دموع أمي التي زادت من عنائي وتعبي، فكانت تقتلني في كل مرة أسترق فيها نظرة منها أو إليها، كان الهروب من مواجهة نظراتها عبر النظر إلى الأرض والسماء هو الملجأ لي.

حاولت أن أخبرها عما حدث لي لكني عجزت عن البوح خشية نظراتها لي في المستقبل، فقد أقتل بنظرة أو كلمة تخرج منها، وفي وسط هذا العذاب آثرت الصمت عن البوح لعل الأيام تغير ما أنا فيه، لكن متى؟ ذاك هو السؤال الذي أرقني لبضع سنين.

ذات يوم دخلت زينب بنت الجيران غرفتي محاولةً أن تخرجني مما أنا فيه بالحديث تارة وباللعب تارة أخرى لكن جميع محاولاتها باءت بالفشل الذريع، رغم رغبتي في مشاركتها لأنها الأقرب إلى نفسي، وكان غيابها عني يزيد من تعبي ونصبي لاشتياقي إليها في كل

لحظة تغيب عن عيناي التي ألفت رؤيتها منذ أن كنت طفلًا صغيرًا فتحت عيناي على رؤيتها، فكانت زينب أول من رأيت ومن أدركت في هذه الحياة.

انهمرت دموع زينب بعد أن طال صمتي الذي أهمل محاولاتها فدب الحزن في نفسها على ما أصابني، وظلت تترجاني أن أتحدث إليها وأبوح عما بداخلي ، لكن جميع محاولاتها باءت بالفشل الذريع، لأني آثرت الصمت والوحدة لشهور.

لم يُعْجِزْ صَمتي زينب عن محاولاتها معي فبعد أن مسحت دموعها من على وجنتيها، قالت لي: لماذا لا تشغل وقتك بما ينفعك طالما أثرت الوحدة، فلدي فكرة طرأت على خاطرتي ستخرجك مما أنت فيه، ثم تركتني وانصرفت دون أن تقول فكرتها.

لم تمكث زينب إلا قليلًا حتى عادت بأوراق رسم بيضاء وفرشة وبعض ألوان الماء، فأشارت إليّ، فمددت يدي وأخذت أرسم وألون كل ما جال بخاطرتي استجابة لها، فليس لمن أحاط بي ذنب في تحمّل ما وقع لي.

فرح كل من في البيت بتلك الخطوة التي غيرت قليلًا من مجريات الأمور، ورغم أنها لم تخرجني من حالة الصمت والوحدة، إلا أنها حركت الماء الركض قليلًا إلى أن جاء يوم الجمعة الذي فاجأني

خالي حسن باقتحام صومعتي قائلًا: هيا بنا نخرج لأداء الصلاة في المسجد القريب من البيت.

أشرت إليه برأسي رافضًا، لكنه غضب وأقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يتركني إلا وأنا معه إلى المسجد.

رفضت ورفضت، فجذبني بقوة من ذراعي وأدخلني دورة المياة عنوة بملابسي، ثم فتح دش الماء ودفعني تحته لأغتسل رغمًا عني، وصاح فيمن في البيت قائلًا: احضروا له ملابس جديدة ومنشفةً تجففه من الماء.

لبّت أختي هناء النداء وأحضرت لي ملابس جافة نظيفة بدل التي كنت أرتديها أخذها خالي وعلى الفور جردني من ملابسي واستبدلها بأخرى في سرعة وخفة، وأنا معه مسلوب الإرادة لا أملك من الأمر شيء، وعندما أنتهى ساقني إلى المسجد بقوة.

كنت أمشي معه خائفًا أترقب من حولي وأنا أمسك بجدران البيت الممزق أرجوه أن يعصمني من اندفاع خالي لكنه لا عاصم اليوم.

عندما نزلنا إلى ساحة مدخله الفسيح زاد خوفي وتسارعت دقات قلبي وأنا أتذكر ما حل وحدث لكني لم أجد أمامي إلا خالي لألتصق به بعنف، فاحتضنني برفق قائلًا: كيف تخاف ونحن ذاهبون لبيت من لا يخاف، الله معك يا محمود فلا تخشى مع الواحد الأحد من خلقه أحد.

اطمأننت قليلًا ولكن ذاكرتي استمرت تذكرني بما حل ووقع، حينها قلت في نفسي إن كان الله يحمينا في كل زمان ومكان ، فلماذا تركني وحيدًا بدون حماء عندما توسلت إليه أن يدفع عني ما أخشاه.

لم أجد إجابة حينها عن سؤالي لأننا دنونا من باب المسجد الكبير الذي ولجت منه، إلا أن شيء غريب حدث لم أشعر به منذ زمن طويل وهو الطمأنينة التي حلت فأرخت الأعصاب وغيرت المزاج إلى الأحسن .

جلست بجوار خالي ملتصقًا به كأي طفل يخشى الغرباء ورحت أحملق ببطء في وجوه المصلين حتى صعد الإمام المنبر وبدأ بالحمد والثناء على رب الأرض والسماء، وتحدث حينها عن القضاء والقدر، وكيف أن الإنسان خلق مسيّرًا بقدر من الله كتبه عليه لحكمة يعلمها هو وحده.

أثار حديث الإمام انتباهي ورحت أنصت إليه باهتمام بعد أن أعطى الأمثلة على قدر الله من خلال بعض الأمور التي وقعت في حياة البشر، والتي ما وقعت إلا لحكمة من عند الله حول بعض مسار الحياة إلى الأفضل والأحسن، فربما شر وقع لابن أدم دفع عنه شر أشرّ منه كون الله لطيف بعباده .

ارتاحت سريرتي بعد أن أديت الصلاة وخرجت مع خالي حسن من المسجد حتى استوقفني أمام أحد الباعة الجائلين ليشتري لي بعض الحلوى التي أحبها ثم رجعنا إلى حيث أتينا سويًا.

عندما دنونا من البيت وأمام مدخل العمارة عاد الخوف ممزقًا أوصالي فوقفت ألتفت يمينًا ويسارًا وقد تسمرت قدماي في الأرض وأبت أن تتحرك من مكانها.

احتضنني خالي قائلًا: لا تخف يا ابن أختي أنسيت أن الله معك وأنا أيضًا معك، فلن يجرؤ أحد على النيل منك.

تذكرت قدرة الله وقلت يا رب يا قادر، فكان الله أقرب من نفسي، فلانت قدماي اليابسة وتحركت حتى اجتزتا المنطقة الصعبة وعندما انتهيت منها انطلقت مسرعًا نحو شقتنا.

ضحك خالي حسن فرحًا بي قائلًا: عايز تسابقني إلى البيت ، ماشي يا محمود ما أنت خفيف وسريع.

طرقت الباب بسرعة، ففتحته أمي في عجالة فتبسمت عندما رأتني أمامها منفرج الوجه فاحتضنتها ودخلت.

عمت الفرحة أرجاء بيتنا الذي هجرته لشهور مضت، ولحقني خالي حسن الذي أخذ يحدثهم عن سعادتي بالصلاة في المسجد قائلًا لهم: كل يوم جمعة إن شاء الله سأصطحبه إلى المسجد لنؤدي الصلاة معًا.

حمد الجميع الله على خروجي من البيت، إلا أنني ظللت حبيس غرفتي غارقًا في رسوماتي وألواني أنتظر يوم الجمعة بفارق الصبر رغبة في الخروج بصحبة خالي إلى المسجد.

وجد أهلي علاجي في المسجد، فكثّف خالي من اصطحابي إليه في كل يوم سنح له وقته لأداء صلاة العشاء سويًا، وكنت أسعد الناس بالخروج معه، لكن ساعات السعادة لم تدم كثيرًا بعد أن أصاب خالي المرض فأوقفه عن زيارتنا، وتوقفتُ أنا عن الذهاب إلى المسجد وإن كان قلبي لم يكف عن السؤال عنه.

مرت أيام افتقدت فيها طعم الحياة الذي تذوقت حلوه بعد مرارة الأيام الطويلة التي مضت، وكان الله أعلم بحالي أكثر مني فأرسل إليّ طاقة الحياة لتستمر وتبقى بإذن من الله.

وعاد خالي الذي مثّل لي طاقة الحياة مرة أخرى، وكنت أسعد الناس بعودته لأن المسجد مثّل لي في تلك المرحلة شريان الحياة الذي كنت أرتوي منه.

انقضت شهور الأجازة الصيفية لتحل محلها أيام الدراسة، فأحضرت لي أمي التجهيزات المدرسية استعدادًا للحاق بركب المدرسة إلا أني أبيت الذهاب.

اقترح خالي أن يأتي إليّ كل صباح ليصطحبني إلى المدرسة ففرحت بما قال، وإن كانت عودتي إلى المدرسة ليست السبب

في عزوفي عنه لكن خروجي ودخولي البيت وحيدًا مسألة كانت تؤرقني.

سألتني أمي: ما الذي يؤرق ذهابك إلى المدرسة فخالك سيصطحبك إليها صباح كل يوم، أتخشى العودة؟

أشرت إليها صامتًا واكتفيت بحركة رأسي استجابة وتأييدًا لما قالت، فقالت لي إن كان هذا الأمر يؤرقك فلا تقلق لأن أختك هناء ستصطحبك معها عند العودة، فأشرت إليها برأسي رافضًا، فقالت لي: ما رأيك أن أصطحبك أنا، تبسمت لقولها في استجابة صريحة باقتراحها.

في اليوم الأول صاح خالي من أسفل العمارة، يا محمود انزل يا محمود أنا في انتظارك يا محمود، بسرعة يا محمود.

فتحت أمي الباب وألقت عليه تحية الصباح قائلة: أهوه نازل يا حسن، خرجتُ من البيت وطلبت من أمي أن تظل واقفةً حتى ألحق به، وانطلقت كالبرق صوب خالي فاحتضنته وأمسكت بيده وذهبت إلى المدرسة برفقته.

ما زال الخوف يسيطر على أركاني وإن كان ليس كذي قبل لأن خالي كان يقص عليّ القصص كل صباح في طريقنا إلى المدرسة، فذكرني بأبي وقصصه التي لا تنتهي حينها خشيت أن يغيبه الموت

كما غيب أبي عني، فكنت أدعو الله ليل نهار أن يحفظه لي ويطيل في عمره ويحفظ بقائه.

استمر الحال على هذه الوتيرة لبعض أيام حتى رافقتنا زينب في طريقنا بعد أن علمت بموعد خروجي، فكانت تنتظرني في كل صباح كي تذهب معي إلى المدرسة التي لم تبعد إلا بضع خطوات عن البيت.

كان خالي وزينب رفقاء الطريق إلى المدرسة ورفقاء هذه الفترة الحرجة في حياتي فهما من يسر لي الحال بعد الله للخروج مما أنا فيه.

كانت زينب تنتظرني بعد انتهاء الدراسة لنعود معًا إلى البيت حتى انتهت السنة الدراسية بكل ما فيها، وعدت أجلس في البيت شهور الصيف على حال واحد لا خروج إلا مع خالي حسن.

في هذه الفترة كانت أُمي تعمل في خياطة الملابس لتفي بمتطلبات حياتنا فمعاش أبي لا يكفينا طعامًا ولا شرابًا.

صنعت أمي حيلة ذكية لتخرجني مما أنا فيه، فقد طلبت مني أن أساعدها في عملها الذي أنهكها لأخيط لها أزرر ما تخيطه ، فاستجبت لها طواعيةً فطالت جلستنا معنا حتى أصبحت ماهرًا فيما أوكلته أمي إلي.

في هذه الأيام كان يزورنا القليل من الأهل رجالًا ونساءً إلا من أعمامي الذين هجروا بيتنا بعد وفاة أبينا، وكان لأمي ابن عم ثقيل

الدم أبغضه وأكره جلسته لأن نظراته لأمي كانت تقتلني، فكنت أغار عليها من هذه الرجل وكنت أتساءل عن أسباب مجيئه وجلوسه معنا لساعات طوال.

ذات يوم خرجت من غرفتي وكانت أمي تخيط الملابس، فوجدت الرجل الثقيل ذو الشعر الكثيف والشارب القصير يجلس بجوارها، فانتصفت المجلس لأفرق بينهما، فطلب مني الرجل أن أخرج للعب لاستكمال حديثه مع أمي، فرفضت أمي أن أنصاع لطلبه وطلبت مني أن ألزمها وألا أفارقها، فشعرت بحاجة أمي إلي ، وفهمت أن الرجل الثقيل ضايقها .

شعر الرجل بالحرج فتركنا وخرج، ثم انهمرت أمي بالبكاء حتى غطى الدمع وجهها المضياء، فمسحت بيدي وجنتيها بعد أن أشفقت عليها من ضعف حالها وقلة حيالها، وأقسمت في نفسي أن أقتص من ذلك الثقيل حتى لو كلفني ذلك الصراخ والعويل.

ترقبت مجيئه في صباح نهار كان فيه كل من في البيت نيام، فطرق الباب طرقتين، ففتحت وقد ألقى عليا السلام، فأجبته في غضب هل وقت الزيارة قد حان لتأتي إلينا في هذا الحين.

ارتبك الرجل الثقيل ولم يكن لديه كلام إلا تحريك شفتاه الطوال بابتسامة المخزول من طول اللسان، وبينما كان يفكر فيما أقول دفعت الباب في وجهه المعسول .

رأت أمي ما وقع مني وكان، فهرولت إليّ تحتضني رافعةً صوتها بالدعاء إلى رب السماء أن يحفظني لها من كل ظالم جبار.

شعرت حينها بالفخر والاعتزاز على صنيعي مع هذا الرجل الثقيل الذي غابت عنه نخوة الرجال الأحرار، وعقدت العزم عن الخروج لأدافع عن أمي وأخواتي البنات، فأنا الرجل الوحيد مصدر الحماية لهن من بطش الأيام.

لقد رفضت أمي العديد من طلبات الزواج رغبةً في الحفاظ علينا وما زادت طلبات الزواج على أمي إلا لحسن طلعتها وقوة صبرها فكانت أمي أجمل نساء الحي وأكثرهن أدبًا وحشمةً.

كبرت والتحقت بالثانوية العامة وعقدت العزم أن ألتحق بكلية الفنون الجميلة لأنمي موهبتي التي تميزت بها في الرسم والألوان ، لكن القدر أبى أن أكون فنان له في الحياة قدر كبير وكيان كما كنت أرى في تلك الفترة أن الرفعة في الفنون.

لم يكن في مخيلتي ذات يوم أن أدرس الحقوق أو أعمل بالمحاماة، لكن التنسيق حرمني من تحقيق حلمي الذي طالما حلمت به وهو الفن التشكيلي، فموهبتي الحقيقية تجلت في الرسم والتلوين لكنه القدر الذي ساق لي هذه الدراسة التي لم تطرأ على ذهني ذات يوم.

دخلت كلية الحقوق مسطرًا أولى خطواتي نحو المستقبل الذي أجهله كما يجهله غيري، لكن دراستي في هذه الجامعة الفسيحة زادت من صورة المستقبل الضبابية التي حجبت رؤية ما ينتظرني.

فخريجي كلية الحقوق إما وكلاء أو معيدين وتلك الوظائف محجوزة لأبناء مجموعة بعينها وإن لاحت وظيفة كبيرة اصطادها أصحاب النفوذ، فلا مجال للفقراء خريجي هذه الجامعة العريقة إلا العمل بالمحاماة فهي السبيل الوحيد أمامهم.

دخلت الجامعة فتجلت رؤية المستقبل أمامي في مهنة المحاماة التي يصعب على أمثالي النجاح فيها لأسباب كثيرة أقلها قلة الخبرة وكثافة المهنة بالمشتغلين بها.

لم أرَ نفسي في هذه الدراسة التي جاءت مغايرة لموهبتي لكنه الواقع الذي فرض نفسه دون ملك إرادتي، فحاولت جاهدًا النجاح فيه رغم الألم الذي أرّقني كثيرًا لكن الحياة قادرة على تجاهلته دون محوه.

مرت سنوات الدراسة بصعوبة بالغة فكنت كالذي يكره الظلام لكنه أُجبر على العيش فيه لأنه خُلق كفيف، بعد أن تفرّق أصدقائي عني وولج كل منهم في طريق مغاير لطريقي الذي سلكته إلا واحد منهم كنت أبغضه لنظراته وكلماته البذيئة.

هاني الذي أبغضه شابٌ قصير مكير يكرهني، لكنه ظل يلازمني كالعمل الرديء الذي لا يفارق صاحبه، فبحكم الجيرة والدراسة ظللنا معًا لكن النفس لا تطيق رؤياه ولا مجلسه.

لم تفرّق الأيام بيني وبين أصدقائي الذين لم يتجاوزوا عدد الأصبع في اليد الواحدة، فلا شك أن لقاء الأحبة كان خير معين في هذه الفترة الحرجة حتى تخرجت من كلية الحقوق، وكان لقاؤنا بعد الدراسة مغاير لما قبله لانقضاء سنوات الدراسة ومواجهتنا للمستقبل وجهًا لوجه.

دار الحوار الأول عن المستقبل بيننا في إحدى جلساتنا على كورنيش النيل، فسألني الثقيل هاني عن مشاريعي بعد التخرج .

أجبته بأن فترة التدريب الأولى لي بعد التخرج ستكون عند الأستاذ خالد.

اندهش هاني من قولي قائلًا: الأستاذ خالد المحامي المشهور، وهل قبلك للعمل معه بهذه السهولة؟

- الحمد لله، وافق لأنه كان صديق خالي حسن، ولما كلمه خالي رحّب بي للعمل معه.
- كده تمام، يا رب تستفيد منه.
- إن شاء الله.

بدأت حياتي المهنية مع مهنتي الجديدة المحاماة التي جمعت خلالها العديد من المعارف والقصص التي حفرت في ذاكرتي لأمد بعيد مشكلةً خبرتي وحنكتي في هذه الحياة.

تأثرت ببعض هذه القصص تأثرًا بليغًا لما كان لها من أثر في نفسي لارتباط بعضها بما ألمّ بي في فترة الطفولة والصغر، وكانت تلك القصص مرآة لما آلت له الحياة في مجتمعنا الذي تحول تحولًا كبيرًا تأثرًا بالغزو الثقافي الذي غيّر حياة البشر من العفة والفضيلة إلى البغض والرذيلة، فكان الطمع والشهوة وتردي الأخلاق آفات طغت على شكل الحياة .

من خلال معاصرتي لتلك الأحـداث وما تأثرت به سبحت بتوفيق من المولى عز وجل في فلك الصلاح والفلاح فحفظتني من السقوط في بئر الأخلاق المتردية، متيقنًا بأن الحق لن يضيع في ظل سيادة القانون ويقظة الضمير الذي ظل صامدًا في قلوب بعض البشر محدثًا نوع من التوازن في ميزان الحياة الذي أوشك أن يختل لولا وجود هؤلاء الشرفاء أصحاب الضمير اليقظ.

بدأت حياتي كمحامٍ عندما ذهبتُ إلى مكتب الأستاذ خالد حاملًا بشرى صديقي هاني الحقود لأجد مكتبه مكتظ كما قال بالموكلين والملفات، وبدا لي المكتب كمصلحة حكومية لكثرة

العاملين به والموكلين الذين يملؤون المكان ضجيجًا في انتظار مقابلة الأستاذ خالد.

توجهتُ إلى سكرتير المكتب الذي اتخذ من أحد أركانه مجلسًا بطاولةٍ رقيقة الحال مُلئت ببعض الأوراق والملفات فسألته عن الأستاذ خالد بعد أن ألقيت عليه السلام، رد السكرتير السلام في أدب.

بيّنت له أني على موعد مع الأستاذ خالد، فسألني بخصوص قضية إيه؟

- أنا مش موكِّل، أنا محامي.
- أنتَ الأستاذ محمود.
- أجبته في دهشة: حضرتك تعرفني؟
- الأستاذ خالد كلمني عنك، أنا طلعت، سكرتير الأستاذ خالد.
- أهلا وسهلًا يا أستاذ طلعت.
- اتفضل يا أستاذ محمود. نص ساعة والأستاذ هيكون هنا أنا لسه مكلمه، اتفضل يا أستاذ محمود اشرب حاجة لغاية لما يوصل.

نادى طلعت على مستخدم المكتب: يا فرغل شوف الأستاذ محمود يشرب إيه، شكرت الرجل الذي أصر، فطلبت كوب من الشاي مع القليل من السكر.

لم تمر إلا دقائق، حتى حضر الأستاذ خالد، فنهض الجميع مرحبين به وأنا معهم، فعرّفه طلعت بي قائلًا: الأستاذ محمود يا متر . .

رحب الأستاذ خالد بي مبديًا سعادته من خلال عباراته اللطيفة، ثم طلب مني أن أنتظره لبضع دقائق رغبةً في إنهاء بعض الأمور العالقة مع بعض الموكلين المصطفين في انتظاره.

انتظرت بصحبة طلعت الذي لم يكف عن الحديث معي ومع الموكلين، وكأنه يملك أكثر من لسان وليس لسان واحد، أجبرت على أن أجاريه في الكلام لكي أمرر الوقت دون كلل أو ملل، وكان من يوقف حديثي معه دخوله في أحاديث جانبية مع الموكلين المصطفين أمامه لأهرب للحظات بعقلي لأرسم ملاح الأستاذ خالد ووجهه المستدير وبنيته الضعيفة في ذاكرتي .

اختلف الأستاذ خالد عن طلعت فهو ذو بشرة سمراء تميزت بخط من الشعر الخفيف مكونًا أشباه شوارب الأعتياء من الرجال، وإن كانت عيناه كبيرتان واسعتان عكس شاربه النحيل، ناهيك عن آثار التدخين التي بدت واضحة على أسنانه الصفراء وأصابع يده، كان يضايقني أثناء جلوسي معه برائحة دخانه الكثيف الذي عكر صفو الهواء الذي استنشقه.

كان طلعت يضحك فتتفتح شفتاه لتظهر فك أسنانه، فيهتز جسده المترهل مع بطنه التي تدلت من بنطاله، لتتصارع مع

القميص الذي كاد أن ينفك هربًا من كرشه الكبير إلا أن أزرار قميصه منعته من الهرب.

ظلت عيناي تتفحص جدران المكان القاتم اللون، الذي اختلف ألوانه لقدمها فتضعك في حيرة عن أصل لونها، هل هي زرقاء، أم خضراء، فألوان الجدران قاتمة غيرت الأتربة من لونها بعد أن هجرتها النظافة.

مرت نصف ساعة عقبها صوت الأستاذ الجهور: اتفضل يا أستاذ محمود، فدخلت مكتب الأستاذ خالد وكان مختلفًا تمامًا عن خارجه، فالغرفة بها مكتب فسيح فخم، خلفه كرسي من الخشب المكسو بالجلد الأسود جلس عليه الأستاذ، وجدران الغرفة ذات ألوان مبهجة مازجت بين الفستقي الفاتح والآخر القاتم، فالمكان مختلفًا تمامًا عن الردهة الخارجية.

جلست مع الأستاذ الذي رحب بي، وبعدها بدأ في شرح الأعمال التي يقوم بها ونوع القضايا التي يستقبلها، وطلبت مني في البداية أن أطّلع على بعض القضايا وأن أقرأها جيدًا متتبعًا الإجراءات التي تمت وحكم المحكمة فيها .

نادى الأستاذ على طلعت، وطلب منه إحضار بعض القضايا المنتهية من الأرشيف، وأن يوفّر لي مكتبًا في إحدى حجرات المكتب الفسيح.

انصرف طلعت واستكمل الأستاذ حديثه معي عن القضايا، وكيف يقوم بإعداد مذكرة مفصلة عنها بعد حصوله على توكيل رسمي من صاحب القضية، ثم طلب مني أن أصحبه في الصباح الباكر إلى المحكمة لنبدأ التدريب عمليًا بين أروقة المحكمة وقاعتها، وظل الأستاذ خالد يحدثني وأنا منصت إليه إلا أن جاء طلعت وقال: المكتب جاهز يا أستاذ.

في تلك اللحظة طلب مني الأستاذ خالد أن أصاحب طلعت مؤكدًا على موعدنا صباح الغد أمام ساحة المحكمة الساعة الثامنة صباحًا، مكررًا بعض كلمات الترحاب مؤكدًا لي أن المكان مكاني في إشارة لدعمي أمام سكرتيره بعد أن أخبرني عن مواعيد فتح وغلق المكتب.

انطلقت بصحبة طلعت إلى مكتبي في إحدى حجرات المكتب ، وكانت حجرة المكتب متواضعة مقارنة بغرفة الأستاذ، مليئة بالملفات المهملة والمكتظة بالأوراق المبعثرة، وما أن دخلت الحجرة ، حتى وجدت رجلًا تجاوز عمره الخمسين ببضع سنوات، فقدمني طلعت إليه: الأستاذ محمود المحامي الجديد يا حاج إبراهيم.

- يا أهلا وسهلًا يا أستاذ.

- الحاج إبراهيم يا متر كاتب القضايا، وطبعًا هتستفيد منه كتير في كتابة المذكرات لأن الحاج إبراهيم شغال هنا ليه سنين، والأستاذ بيتكل عليه في كتابة مذكرات القضايا.

- يا أهلًا وسهلًا يا حاج إبراهيم، إن شاء نتعلم منك.
- تحت أمرك يا أستاذ محمود.

بدأت في فتح أحد الملفات التي تكدست أوراقه المتشبعة بالأتربة، فبدأت في القراءة، وأنا لا أعي شيء، فشعرت بالفشل الذريع لاختلاف ما اطّلعت عليه تمامًا مع ما درسته في كلية الحقوق طيلة أربع سنوات.

بدت علامات القلق والارتباك على وجهي دون أن أشعر بها كما شعر بها الحاج إبراهيم الذي كان يرقبني.. إيه يا متر؟ تايه طبعًا ومش فاهم حاجة.

التفتُ إليه متعجبًا! فعلًا أنا تايه ومش فاهم حاجة!

شيء طبيعي يا متر، متقلقش، شوية شوية هتعرف كل كبيرة وصغيرة، الأول افحص توكيل صاحب القضية، واعرف شكواه وغرضه من رفع القضية، ثم راجع المستندات المرفقة التي تدعم شكواه، وفي آخر الملف هتلاقي مذكرة الأستاذ هتوضح لك خط سير القضية بالتفصيل .

ستجد الأستاذ في مذكرته مدعّم كل كلمة مكتوبة بمستند، بعدها ستضح لك الأمور رويدا رويدا، وفي آخر الملف ستجد حكم المحكمة حسب القوانيين التي درستها في كلية الحقوق .

هذا كل شيء يا متر، فالأمر بسيط، لكنه يحتاج بعض الوقت لتعي كل شيء، ومع التدريب والممارسة ستصبح من ذوي الخبرة.

- إن شاء الله يا حاج إبراهيم، بس متحرمناش من نصائحك.
- تحت أمرك يا أستاذ محمود، ما أنت زي ابني.
- الله يكرمك يا حاج.

تتبعت خطوات الحاج إبراهيم في سير القضية فتجلت الأمور ووضحت، وبدت يسيرة عكس ذي قبل، فحمدت الله أن قابلت هذا الرجل، الذي كان لي مرشدًا وموجهًا، ومر الوقت سريعًا، وانقضى اليوم الأول بسلام.

ذهبت إلى مبنى المحكمة الشاهق متعدد الطوابق، فكان أول ما لفت انتباهي سيارات الترحيلات والجنود الذين يطوقون أسوار المحكمة، ولجت من بابها الفسيح وخطوت أولى خطواتي نحو مهنة المحاماة من خلال الممارسة الفعلية لهذه المهنة بعيدًا عن مجلدات القوانيين والكتب الدراسية.

وقفت أمام إحدى القاعات وكان المكان مزدحمًا يعج بالمارة من الموكلين والمحامين الذين يحملون الأرواب السوداء .

في هذا المكان تتفحص عيناك الواقع بكل ما فيه، وكأنك تشاهد لقطات فنية من فيلم سينمائي، فكل فئات المجتمع اجتمعت في هذا

المكان حتى الأطفال كان لهم وجود رغبةً في متابعة شكواهم أو الأحكام الصادرة لهم أو عليهم.

وقفت أتأمل المشهد وتذكرت على الفور أن أهاتف الأستاذ خالد لأسأله عن مكانه فقال لي: انتظرني أمام مكاتب سكرتارية المحكمة، فانتظرته أترقّب مجيئه في قلق، فهذه المرة الأولى التي أدخل فيه المحكمة من بوابة الواقع وليس من خلال التلفاز.

جاء الأستاذ وكان يرتدي بدلة زرقاء وفي إحدى يديه شنطة جلدية سوداء وفي اليد الأخرى روب المحاماة الأسود، فسألته عن سبب ارتداء المحامين للأرواب السوداء، فأجابني أن هيئة المحكمة لا تسمح لأي محامي بالوقوف أمامها دون ارتداء روب المحاماة.

هنا فهمت سبب جلب المحامين للأرواب معهم أثناء حضور جلسات المحكمة لأذهب بعدها في صحبة الأستاذ إلى إحدى القاعات وقبل أن ندخل راجع رقم القضية التي جاء من أجلها من خلال قائمة القضايا وأرقامها التي وضعت مسلسلة على باب القاعة.

بعد أن انتهى دخلنا إلى القاعة وكنت أظن أن المحامي يقف للمرافعة أمام هيئة المحكمة كما كنت أرى في الأفلام السينمائة، لكن الواقع كان مخالفًا تمامًا لما كنت أظن .

كان الحاجب ينادي على رقم القضية، فيثب المحامي من مكانه متجهًا إلى المنصة برفقة ملف به مستندات القضايا، بعدها يدخل في

نقاش مع القاضي الذي يطلب الشهود في بعض الأحيان، ليجلبهم الحاجب مناديًا، فيقدّم القاضي لهم بعض الأسئلة في صلب القضية، بعدها ينصت ويدوّن إجاباتهم إثباتًا أو نفيًا بعد حلف اليمين.

يعلّق بعدها المحامي على إفادة الشهود، ثم يطلب القاضي من المحامي أن ينتظر النطق بالحكم في نهاية الجلسة.

جلست برفقة الأستاذ ننتظر نداء الحاجب على رقم قضيتنا، وكان يطوقنا أصحاب القضية برفقة بعض الشهود، وبعد وقت ليس بالقليل نطق الحاجب: القضية رقم 86 .

لبّى الأستاذ خالد النداء، تمام يا ريس خالد القلاف المحامي حاضر عن المدعى عليه عبد الرحمن كامل، ثم وضع الأستاذ ملف مستندات القضية على المنصة أمام قاضي الوسط، الذي أخذ يقلّب في أوراق القضية متفحصًا إياها، ثم سأل القاضي: أين عبد الرحمن كامل الذي وقف ملبيًا: أنا يا سعادة البيه.

- سأله القاضي: إخواتك مقدمين مذكّرة بأنك مزوّر عقد ملكية العقد المتنازع عليه معهم، زوّرت ليه العقد يا عبد الرحمن؟

- والله يا ريس ما زورت حاجة، أبويا قبل ما يموت كان كاتب عقد بيع الخمس فداديين ليا بيع و شراء والعقد موثق في المحكمة وفيه نسخة منه مع الأستاذ خالد المحامي .

- أنت رافق العقد في ملف الدعوة يا متر؟

- نعم يا ريس.

- أنت إيه أقوالك يا عبد الرحمن في كلام إخواتك البنات؟

- اشتكوني يا سعادة البيه لأنهم عايزين ميراثهم من أبوهم، وأبوهم الله يرحمه قبل ما يموت مكتبلهمش حاجة، أنا ليا ذنب يا باشا في كده، ما كانوا سألوه مكتبلهمش ليه.

التفت القاضي تجاه الحاجب وأعطاه ورقة، فنادي الحاجب بصوت عالي: زينب كامل، وسنية كامل، وفوزية كامل تعالوا هنا عند المنصة قدام البيه القاضي.

حضرن الثلاث نسوة ووقفن في هيبة ووقار أمام القاضي بصحبة أحد المحامين، الذي قال: طارق فتحي حاضر عن أصحاب الدعوة يا سيادة الريس.

- قال القاضي: الرجل ده مقدم مستندات مسجلة بحق ملكيته في الخمس فدادين، وأنت هنا مقدم طعن في المستندات، ما هي علتك؟

- احنا بنطعن بالتزوير يا ريس، لأن أبوهم كان فاقد الأهلية قبل وفاته، وأنا رافق لسيادتك مع المذكرة تقرير طبي من أحد المستشفيات الحكومية، يفيد بأن أبوهم كان فاقد الأهلية قبل توقيع هذا العقد.

- طلباتك إيه يا متر؟

- بطالب يا ريس تحويل المستندات للجنة الخبراء لفحص المستندات والعقد موضوع القضية ومقارنتها مع شهادة المستشفى.

- التفت القاضي للأستاذ خالد، وقال: عندك أي تعقيب يا متر.

- أنا شارح كل حاجة لعدالة المحكمة في المذكرة المرفقة بمستندات القضية يا ريس.

- إذًا فالحكم في نهاية الجلسة، نادي يا حسين على القضية اللي بعدها.

رفع حسين صوته عاليًا: القضية رقم 87 .

انصرف الأستاذان برفقة الموكلين وأنا معهم، وكانا المحاميان يقودانا إلى خارج القاعة وهما يتهامسان برفق وظلا على هذه الحالة متخذين أحد أركان المحكمة مكانًا لإستكمال حديثهما بعيدًا عنا، والخصوم في جانب آخر، وأنا أقف بينهما أطالع الفريقين في صمت.

مرت دقائق، تصافحا بعدها المحاميان، وانطلق محامي الخصم متجهًا إلى فريقه، واتجه الأستاذ خالد إلى موكله عبد الرحمن وطلب مني أن أنضم إليهما .

طمأن الأستاذ خالد موكله عبد الرحمن قائلًا: احنا ماشين صح في الدعوة ومتقلقش حتى لو اتحولت لخبير، القضية كسبانة كسبانة،

بس إيدك يا حاج عبد الرحمن على ألف جنيه عشان محتاجين مصاريف عشان نحرك الدنيا بدل ما توقف.

- يا متر أنا لسه مديك ألفين جنيه.

- يعني أنا أخدت حاجة في جيبي ما كله رش وطوابع ودمغات، ولا أنت فاكر أن الحاجة هنا ببلاش.

- حاضر يا متر، اتفضل وأدي الألف جنيه.

حدثت نفسي: 3000 جنيه ولسه القضية مخلصتش، ما هي المحاماة بتكسب! لكن ولاد التيييييت المحامين بيقولوا مهنة مش بتاعة فلوس، ما هي مليانة فلوس!

وضع الأستاذ خالد الألف جنيه في جيبه، وانطلقنا إلى مكاتب الموظفين، لكي أتعرف عليهم حسب طلب الأستاذ خالد.

دخلت المكتب الأول وكان به ثلاثة مكاتب متلاصقة لثلاثة موظفين، وعندما ألقى الأستاذ السلام نهض الجميع ليبادلوه التحية وهم يصافحوه بأيديهم وأنا أتبعه، فقدمني إليهم: الأستاذ محمود شغال معايا في المكتب، عايزكم تهتموا بيه وتعاملوه زي ما بتعاملوني.

- رحب بي الجميع: يا أهلًا يا أستاذ محمود.

- يا أهلًا وسهلاً بيكم يا بهوات.

- تشربوا ايه يا أساتذة.
- ولا حاجة مستعجلين والله، ورانا شغل كتير.
- الزيارة دي مش محسوبة لازم تشرفنا مرة تانية.
- طبعًا يا بهوات هو احنا نقدر نستغنى عنكم.
- ربنا يديم المعروف يا متر.

مر الوقت سريعًا وانطلقنا خارج المحكمة في اتجاه إحدى المقاهي المقابلة المحازية للمحكمة .

المفاجأة أني رأيت محامي الخصم ينتظرنا هناك، فرحب بنا الأستاذ طارق ثم نادى النادل ليقدم لنا بعض المشروبات، طلب الأستاذ خالد قهوة وطلبنا مشروب بارد، ثم تحدث محامي الخصوم في القضية: أستاذ خالد، عايزين حل وسط يرضي الطرفين بدل المحاكم والقضايا.

- أنا معنديش أي مشكلة يا أستاذ طارق، يا ريت نوصل لحل.
- إيه اللي يرضيك يا أستاذ خالد.
- أنا محامي عن موكلي لكن أنا وسيط مش طرف.
- أنا مثلك يا متر، ممكن حضرتك تضغط من ناحية وأنا من ناحية نحل الموضوع.
- إيه رأيك أكلم الحاج عبد الرحمن يحضر معانا ونتفاوض معاه مباشرةً.

- تمام يا ريس.

- توكلنا على الله معادنا بالليل في مكتبي، أفضّل تكون أنت موجود لوحدك، إذا توصلنا لحل اعرضه على موكلينك، وإذا وافقوا، نخلص ونوثق كل شيء.

- تمام يا ريس إن شاء الله هكون موجود في مكتبك اليوم بالليل بعد صلاة العشاء، ويكون معانا الأستاذ محمود.

- أكيد الأستاذ محمود هيكون موجود، لحظة أبلّغ الحاج عبد الرحمن.

- آلو، السلام عليكم يا حاج، اليوم إن شاء الله عايزك في مكتبي بعد صلاة العشاء بخصوص القضية بتاعتك، وهكون في انتظارك في الموعد بإذن الله، مع السلامة.

- خلاص يا سيدي موعدنا اليوم.

- تمام يا أستاذنا.

- أستأذنك يا أستاذ طارق، هجيب الولد من المدرسة لأنه على خروج.

- تمام يا ريس، انفضل معاليك.

صافحنا الأستاذ طارق وانطلقت بصحبة الأستاذ خالد في اتجاه سيارته، ركبنا االسيارة، وفتحت النقاش معه حول القضية وسألته:

هل من الممكن أن يتفق الأطراف على التصالح بسهولة رغم أن كل طرف منهم متمسك برأيه؟ فأجابني الأستاذ خالد: واللهِ ممكن يا متر، إذا كانت النية صافية.

- مش غريبة يا أستاذ خالد إن إخوات يدخلوا في خصومة من أجل ميراث.

- يا أستاذ محمود أنتَ لسه شفت حاجة، ياما هتشوف وهتسمع حاجات تشيّب شعر الرأس لأن المحكمة دنيا صغيرة، بس الاختلاف بينهم أن الدنيا فيها الحلو والوحش، لكن المحاكم فيها الوحش بس.

- أنا شايف أن موكلنا صعب ومستحيل يتنازل عن أي شيء يا أستاذ خالد.

- كل حاجة في البداية بتبقى كده، لكن مع الضغط ممكن يلين وتتحل الأمور.

- في حالة أن الموضوع اتحل، كده حضرتك بتخسر الأتعاب؟

- لا طبعًا، لو اتحل هناخد أتعاب من الطرفين بدون أي مجهود أو تعب، فأنا بتمنى أن الموضوع يتحل ودي عشان نخلص بدون تعب المحاكم.

وصلنا إلى المدرسة ووقفنا قليلًا في انتظار ابن الأستاذ خالد، وكان طفلًا في نهاية المرحلة الإبتدائية .

ضرب الأستاذ خالد نوق سيارته لإثارة انتباه طفله، فانتبه الطفل سريعًا ملوحًا لأبيه بيده في إشارة استجابة له، حتى وصل إلى السيارة فركب وعلامات السعادة ترتسم على وجهه، فقدمني الأستاذ خالد إليه، ده عمو محمود يا حسن، أهلًا يا عمو.

انطلق الأستاذ خالد بالسيارة، وسألني عن وجهتي، وأصر أن يوصلني إلى بيتي، وكنت في غاية الخجل، فقد طلبت منه أن آخذ إحدى سيارات الخدمة إلا أنه رفض، لأن بيتي قريب من المدرسة، وصلت إليه بعد وقت قصير .

ترجلت من السيارة شاكرًا له حسن صنيعه، فأكد موعد الليل حتى أكتسب خبرة من جلسات التفاوض بين المتخاصمين.

صعدت إلى بيتنا وأنا أشعر للمرة الأولى بعد التخرج بنشوة السعادة التي كانت تصاحبني مع كل نتيجة أنتقل بها من سنة دراسية إلى التي تليها، هنا شعرت للمرة الأولى أني رجل له قيمة في هذا المجتمع الكبير.

أخذت قسطًا من الراحة بعد أن تناولت الغداء برفقة أمي وإخوتي الذين تحلّقوا حولي يسألوني عن عملي الجديد ودار الحوار بيننا إلى أن انتهيت .

نمت واستيقظت بعد صلاة المغرب، فرحت أعد عدتي للقاء اليوم، بعد أن قمت بكي ملابسي وتلميع حذائي بعدها انطلقت إلى مكتب الأستاذ خالد إلى أن وصلت في غضون نصف ساعة.

دخلت إلى مكتبه مصافحًا الأستاذ طلعت ثم الحاج إبراهيم وجلست أنتظر جلسة الوفاق بين المتخاصمين، مرت نصف ساعة حضر خلالها الحاج عبد الرحمن ثم تبعه الأستاذ طارق فجلست معهما في انتظار الأستاذ خالد الذي حضر متأخرًا.

طلب منا الأستاذ خالد اتّباعه للجلوس في مكتبه بعيدًا عن الموكلين الذين رحب بهم، فقال الأستاذ خالد: يا حاج عبد الرحمن الأستاذ طارق محامي إخوتك وقد حضر اليوم للجلوس معك بغية التوصل لحل يرضي جميع الأطراف.

- والله الأمور محلولة يا متر، هما يتنازلوا عن الشكوى ويا دار ما دخلك شر.

- ضحك الأستاذ طارق وقال: يا حاج عبد الرحمن أنتَ عارف أن العقد اللي معاك غير صحيح، وهنثبت عدم صحته في المحكمة وأنا والأستاذ خالد اجتمعنا اليوم لنحل الموضوع في هدوء بعيدًا عن المحاكم.

- تغير وجه الحاج عبد الرحمن غاضبًا ثم قال: أنتَ بتشكك في ذمتي يا أستاذ ولا إيه؟، عيب الكلام ده .

- تدّخل الأستاذ خالد: يا سيدي الرجل لا بيشكك فيك ولا بيتهمك لا سمح الله، هو قصده يقول إنكم إخوات وميصحش تخسروا بعض عشان ميراث، دي وجهة نظره صح يا متر.

- مضبوط يا أستاذ خالد أنا أقصد كده، شوف يا حاج عبد الرحمن إيه الحل اللي يرضيك وأنا أعرضه على الجماعة ونتصالح .

- أنا حلي أنهم يبعدوا عني، ولا أدخلهم بيت ولا يدخلولي بيت.

- تدخّل الأستاذ خالد، ده مش حل يا حاج عبد الرحمن.

- شوف يا متر الحل اللي يريحك؟

- أنا شايف أنك تتنازل لهم عن جزء من قطعة الأرض، واعتبرها صدقة يا سيدي لصلة الرحم.

- بس ده يا متر ميرضيش ربنا.

- ما أنت رجل خير وكله في ميزان حسناتك.

- لا أنا مش موافق.

- بس يا حاج عبد الرحمن لو الأستاذ طارق أثبت في المحكمة أن العقد مزور أنت هتتحبس.

- أتحبس ليه هو أنا سارقه، داه تعبي وشقايا.

- ما أنا قلت نوصل لحل، وتبقى جت منك ونحل الموضوع من غير مشاكل.

- عايزين إيه يا متر، أنت المفروض معايا ولا معاهم؟

- أنا مع الحق يا حاج.

- وإيه الحق اللي أنت شايفه يا أستاذ؟

- أنك تتنازل عن فدانيين للبنات.

- فدانيين مرة واحدة، يا خراب البيوت يا ولاد، حرام واللهِ، ده كتير قوي يا متر، أنا إكرامًا ليك وللمتر هتنازل عن فدان واحد ولوجه الله.

- فدان مش هينفع يا حاج.

- إيه رأيك يا متر أتنازل عنهم كلهم إذا كان يرضيك، عليا الطلاق بالثلاثة هما فدان ونص ولو اطبقت السماء على الأرض مفيش غيرهم يا خراب البيوت يا ولاد.

لم يكف الحاج عبد الرحمن عن التهويل الذي صاحبه بالندب عن الوجه، وقد مسك بأطراف جلبابه وهم بتمزيقه .

طلب منه المحاميان الهدوء، والاستعانة بذكر الله، لأن كل شيء زائل في تلك الحياة، وكلنا سنذهب إلى طاعة مولانا.

نادى الأستاذ خالد على طلعت السكرتير الذي حضر في سرعة وخفة، وطلب منه إحضار ليمون بارد ليهدىء به جدل النقاش الدائر، ثم سأل الأستاذ طارق عن زوجته المريضة بغية الهروب من النقاش، ففطن الأستاذ طارق وجاري الأستاذ خالد في حواره حول زوجته .

- هدأ الجو العام قليلًا، ثم عاد الأستاذ خالد موجهًا حديثه للحاج عبد الرحمن، كده توكلنا على الله يا حاج وبعد يومين الأستاذ

طارق هيجيب إخواتك هنا وتتنازل عن الفدانيين ونعمل تصالح في المحكمة.

- أنا حلفت بالطلاق هما واحد ونص يا بلاش منها القعدة دي.

- ضحك الجميع وقالوا اللي تشوفه يا حاج أهم حاجة تكون راضي، وأنتوا في الأول وفي الآخر إخوات، وإحنا واللهِ عايزين لكم الخير، وإكرامًا للوالد الله يرحمه يا سيدي مش لإخواتك خالص.

- الدنيا يا سيدي مبتجيش غير على الغلبان واللهِ، وأنا إكرامًا لأبويا الله هيرحمه في تربته هتنازل لكن مش عشانهم وربنا يعلم.

- أنت الكريم يا حاج وكله في ميزان حسناتك، كده يا أستاذ طارق نتقابل هنا يوم الجمعة والمكتب فاضي وأنا هكون مجهز التنازل ونوقّع ونخلّص.

- بس فيه حاجة قبل ما أوقّع، ميفرضوش عليا عايزين هنا ولا هناك، اللي هيطلع مني هدهملهم.

- ماشي يا سيدي ومتنساش أنكم إخوات .

- حاضر يا أبوي حاضر مش هنسى المهم هم مينسوش ولا كل حاجة فوق رأس الكبير.

انتهت جلسة المصالحة على خير، وطلب الحاج عبد الرحمن الاستئذان بالرحيل، فصفحناه جميعًا وانصرف.

بعد أن انصرف الحاج عبد الرحمن، راح المحاميان يتفقان على اقتسام نصيبهما من الفريستين الشاكي والمشتكي ليتفقا صراحة على الأتعاب، حينها شعرت بالخجل واستأذنت في الإنصراف، فأذنوا لي.

بعد هذه الجلسة أدركت أن ما يدور خلف الكواليس أعمق من الظواهر التي تعرفها الناس، فكنت أظن هناك خصومة حقيقية بين المحامين لكن الحقيقة كانت مغايرة لذلك تمامًا، فالمال يقرِّب الأعداء ويوحد الشعوب المتحاربة ويزيل الخصومات وينمي الصداقات.

انتظرت خارجًا حتى انتهى المحاميان من جلستهما وهما يتصافحان مبتسمان، بعدها طلب مني الأستاذ خالد الولوج إلى مكتبه للجلوس معه، ثم نادى طلعت وطلب منه أن يحضر له قضية الحاج عرام أبو الحسن.

أحضر طلعت ملف القضية ثم بدأ الأستاذ خالد حول ملباسلتها ثم طلب مني الاطلاع عليها، وأمهلني للغد لمناقشتها معه بعد إبداء رأيي فيها .

فرحت بثقة الأستاذ خالد، واحتضنت الملف بفرحة، وانطلقت إلى بيتي ممسكًا به متشوقًا للاطلاع عليه .

وصلت مستعجلًا خطواتي إلى البيت ودون أن أخلع ملابسي رحت أتصفح ملف القضية أُقرأه صفحة صفحة، وكانت هذه المرة

مختلفة عن ذي قبل، حيث كان الفهم أسرع وأوضح من القضايا التي تصفحتها مدونًا ما استنتجته من حلول في ورقة خارجية.

من شدة سعادتي استعجلت الصباح أن يأتي فرحًا بما أنجزت منتظرًا رأي الأستاذ بفارغ الصبر .

انطوت صفحات الليل وأشرقت الأرض بنور ربها، فتوضأت وصليت وخرجت دون أن أتناول طعامي قاصدًا المحكمة أنتظر الأستاذ خالد في أروقتها التي راحت هيبتها من صدري بعد تكرار ذهابي إليها، فجلست في قاعة المحامين بجوار الأستاذ خالد الذي كان ينتظرني .

- سألني الأستاذ خالد قرأت يا متر ملف القضية؟

- طبعًا يا أستاذنا، وجمعت الملاحظات وبعض الحلول في الورقة اللي قدامك.

أمسك الأستاذ الورقة وراح يقرأها بتمعن، وهو يبتسم حتى انتهى منها، وقال لي ما شاء الله عليك يا متر دماغك حلوة وشغالة وشكلك كده هتبقى محامي كبير في الجنائي.

احمر وجهي خجلًا من مديح الأستاذ الذي أعطاني دفعة قوية للبحث والقراءة في ملفات القضايا، ثم أوصاني الوصية الأولى التي أتذكرها ولا أنساها «عليك بالقراءة في مجلدات القوانيين يا أستاذ محمود» لأن القراءة ستعطيك الثقافة والثقل والتميز بين زملاءك.

أخذت نصيحة الأستاذ خالد على محمل الجد، وعكفت على القراءة في مجلدات الكتب المصفوفة في مكتبه، وكذلك جميع جميع ملفات القضايا التي أرشفت داخل المكتب القديمة والجديدة.

كنت أتوقع الحكم بعد الاطلاع على ملف أي قضية كنت أقرأها، ومن ثم أطلع على حكم المحكمة الذي كان يلازم توقعاتي وكأننا رفيقان، ومن شدة حبي للاطلاع نظمت كل القضايا وحفظتها كالبنيان المرصوص حتى سهّلت عملية البحث على الجميع وأنا منهم.

زاد اتكاء الأستاذ خالد عليَ في عمله، فأصبحت العمود الفقري له ولجميع العاملين بالمكتب، وكنت حينها لا أنظر إلى راتبي الزهيد الذي لا يُقارن بما يأخذه الأستاذ من أتعاب.

كنت أقول في نفسي لقد أتيت هنا للتدريب وأنا الآن أسير فيه على ما يرام، فالصبر الصبر، فلا بد الأستاذ يركن لي أتعاب كبيرة بعد أن أقضي معه فترة من الزمن .

مرت الأيام ولا شيء تغير، فالأستاذ لا يبالي بي ولا بأتعابي، وكان الخجل يقتلني في فتح هذا الملف الشائك معه، لكن مع ضغوطات الحياة ومتطلباتي التي زادات بسبب احتياجات العمل والتنقل من محكمة إلى محكمة لم أقدر على الصمت طويلًا مما دفعني لأن أفاتح الأستاذ فيما كنته في صدري منذ سنتين.

انتهزت الفرصة التي كان فيها الأستاذ قد حصل على أتعاب كبيرة من إحدى القضايا التي هلكت فيها دون أن يعرف عنها شيئًا، وانتظرت أن يكافأني على صنيعي، لكنه اكتفى بعبارات المدح والثناء، وهرب إلى مكتبه.

لم تثلج عباراته صدري، لأنها لا تغني ولا تسمن من جوع، فالكلام لا يطعم جوفًا ولا يكسي عريانًا.

دخلت عليه المكتب وطلبت مه بعض المال لأقضي احتياجاتي، فأمسك بحافظته الملقاة على المكتب، وأخرج منها مئتان جنيهًا وقال لي: تستحق والله يا متر عشان أنت تعبت.

نظرت إلى المئتي جنيه وأنا في ذهول، قائلًا في نفسي: حصل على عشرين ألفًا، وفي النهاية أعطاني مائتي جنيه دون خجل.

استنكرت ما فعل، وقلت له: إيه ده يا أستاذ، أنا كنت طمعان في ألفين ثلاثة لكن مئتين جنيه، أنت مش شايف إنهم قليلين ومش مستهلين.

فاجأت الأستاذ بجرأتي في المطالبة بحقي الذي أكله، فبهت وجهه وازدادَ احمرارًا، لكنه كان أكثر دهاءً مني فأقسم بالله كذبًا أنه لم يتقاض إلا خمسة آلاف جنيه ضاع منها ثلاثة ألاف ونصف في الرشاوى والرسوم.

ضحكت عندما سمعت قسمه لأني أطّلعت على الشيك الذي قدمه الموكل للأستاذ خالد، وهنا كانت الصدمة الأولى لي في معترك الحياة، فأثّر ذلك على نشاطي الذي تبدّل من حماس الشباب إلى كسل العواجيز بعد أن ضعفت همتي وقلت عزيمتي من إحساسي بالظلم الذي وقع عليّ، فأصبحت اللا مبالاه هي وجهتي ودستوري في العمل .

هنا بدأت المشاكل بيني وبين الأستاذ خالد الذي أظهر غضبه ووضعني في مواقف حرجة مع الموكلين بعد أن أصبحت ملاذه ومنقذه في المواف الصعبة، فكنت الشماعة التي علق عليها أخطاءه، ورغم كل شيء لم يهتم بزيادة راتبي الزهيد قط.

زاد الحزن في صدري ، بعد أن أدركت أن الحياة ليست لها قيمة بلا مال، وكنت أشعر بالخجل أمام أمي وإخوتي، فكيف لي أعمل ليل نهار ولا أقدّم لهم ما يساندهم ويعينهم على متطلبات الحياة .

كنت أتخذ النوم هربًا وخجلًا من أسرتي التي تعبت وضحت بالكثير من أجلي، وفي هذا الوقت أدركت أنه لا فائدة من العمل مع الأستاذ خالد، فكل شيء لا يتغير رغم كل ما قمت بتغييره، وما زاد الطينة بلة أني علمت من بعض المحامين والموكلين أن الأستاذ خالد علق شماعة أخطاءه في كل القضايا الخاسرة على عدم وجودي بالمكتب طيلة عدة شهور .

زاد حزني وغضبي من الأستاذ خالد الذي خان ثقتي فيه، فكنت أظنه على خُلُق لكنه أظهر وجهه الحقيقي الذي كان يخفيه، وقررت بعد تفكير عميق أن أنسحب بعد أن وجدت في عدم التعامل مع الأستاذ خالد هو الحل الوحيد لأسباب عدة، أهمها قلة المال الذي أحتاجه لمساندة أهلي على متطلبات الحياة الصعبة .

ثانيها بناء مستقبلي المجهول الذي أعلم أنه بيد الله وليس بيدي أحد غيره، ناهيك عن أسباب أخرى لا تعد ولا تُحصى والتي تمثل احتياجات أي شاب في هذه المرحلة من عمره.

قررت الاستقلال وفتح مكتب جديد، وهنا كانت معاناة أخرى مثقولة بالهم والغم والخوف من المستقبل، وكانت معاناتي الأولى هي إيجاد مكتب يتوافق مع إمكانياتي المتواضعة ماديًا في ظل الإيجارات المرتفعة للمكاتب والوحدات السكنية .

بعد بحث عميق أنعم الله عليّ بمكتب عبارة عن غرفة وصالة ذات إيجار زهيد في عمارة قديمة قريبة من قسم الشرطة، فرحت بهذه الخطوة كبداية ووقّعت العقد مع مالك العقار وكانت تلك أولى خطوات الاستقلال بنفسي كمحامي حر.

- حُط اليافطة فوق وضبّط الإضاءة بتاعتها عايزها تخطف أنظار اللي رايح واللي جاي .

- حاضر يا متر، بس متنسناش في البقشيش.
- تؤمر يا ريس.

صعدت إلى مكتبي المتواضع وجلست أحدّث نفسي أخيرًا أصبح لي مكان مستقل، أسيَّر فيه أعمالي كيفما أشاء، لكن كيف أجذب الموكلين؟ فسوق العمل مليء بالمحامين الفطاحل، لكني كنت على يقين بأن الرزاق لا يغفل ولا ينام، فجميع الفطاحل بدأوا صغارًا مثلي مثلهم، وبعد عدد من القضايا نالوا السيط والشهرة، وتلك كانت البداية، وما عليّ إلا التوكل على الله والأخذ بالأسباب، فالصبر مفتاح الفرج.

الجلسة الأولى

«فوزية بائعة الخضروات»

التزمت الصبر وانتظرتُ أيامًا مرت عليّ ببطء وأنا أنتظر الفرج الذي طال مداه مستعينًا بقصص الأنبياء في الصبر على البلاء، فكنت أقرأ في كل يوم قصة حتى جاء اليوم الذي بدأت أقرأ قصة نبي الله أيوب، وبينما أتصفّح ما أقرأ دخل صاحب العقار ، قائلًا لي: السلام عليكم يا متر.

وعليكم السلام يا حاج رأفت.

أنا عندي قضية لواحدة غلبانة وحالتها لا تسر عدو ولا حبيب، وأنا هدفع أتعابها لأن البنت لا حول لها ولا قوة واعتبره إيجار المكتب عن الشهر اللي جاي.

استقبلت الفتاة بصحبة أمها وصاحب العقار الذي استأذن بالرحيل تاركًا لي همًا يثقل النفس ويرهقها.

أذنت لهما بالجلوس، وطلبت من الفتاة المرتبكة أن تقص علي قصتها دون خجل أو كذب كي أستطيع مد يد العون لها .

بدأت الفتاة المرتبكة في الحديث: كنت أخرج كل يوم بعد صدوح المؤذن بتكبيرات الفجر بحثًا عن مكان في سوق الخضار الذي يكتظ بالباعة الجائلين الذين يفترشون الأرض قبل بذوغ شمس النهار رغبة مني أن ينعم الله عليّ بفيض رزقه إذا بكرت في الخروج إلى السوق .

كان مرادي في الحياة أن أبيع ما جئت به من بعض الخضروات كي أوفر طعامًا لأمي التي كسرتها الأيام بعد وفاة أبي الذي ترك لها إرثًا ثقيلًا من الفقر المفجع مع كوم من اللحم ما أراد من الحياة إلا سد جوعه، فإخوتي الصغار لا راعي لهم إلا الله، فهم لم يبلغوا الحلم بعد.

كفكفت نفسي ببعض الأصواف وترجلت حاملة قفة من الخضار قاصدة سوق المدينة الكبير القابع في أطرافها، مشيت أتحسس الضوء والأمان الذي غاب عنا فلا ساتر يسترنا إلا الله.

اتخذت أزقة المدينة سبيلًا إلى مقصدي خشية أن يعترضني اللصوص فهذه الطرق الضيقة ألفتها وصرنا أصدقاء يناجي بعضنا بعض للهروب من الخوف الذي سيطر تمامًا على فؤادي .

كانت رغبتي في الاستئناس بها لأصل لمرادي، فلا أشعر بالاطمئنان إلا بعد استقبال العصافير بزقزقتها حينها أدرك حبل

الأمان الذي يشعرني بنشوة النصر على الخوف الذي كان يميتني ويحيّني في كل صباح أخرج فيه إلى السوق .

حمدت الله بعد أن وصلت للسوق الفسيح وسعدت عندما وجدت مكانًا بعيدًا عن أعين أصحاب الإتاوات الذين يحتجزون الأماكن البارزة في السوق مقابل مبلغ من المال.

وضعت قفتي المليئة ببعض الخضروات الطازجة وجلست أنتظر الفرج وقسط من الرزق الذي قسمه الله لعباده بعد أن أخذت بالأسباب .

مرَّ الوقت رويدا رويدا وبدأ كبار السن من الرجال والنساء بالزحف على السوق ثم تبعهم موظفي الحكومة وبعض النساء بعد ساعة امتلأ السوق واعتج بأصوات الناس التي تخالطت وشكلت موجة كبيرة من الضوضاء تفسر منها الآذان القليل من الكلام.

توافد المشترون على قفتي الهزيلة وفي أقل من ساعتين رزقني الله وبعت كل الخضار، فسارعت إلى بعض البائعين كي أصيب منهم بعض حاجات إخوتي الصغار.

كنت قد عقدت العزم إن بعت ما أحمله فسأبهجهم بما يسرهم من الطعام، فكرت في قطعة صغيرة من اللحم، فوقفت أمام اللحّام أحدّق في التسعيرة التي وضعها على واجهة دكانه العتيق .

نظرت إلى ما بيدي وأخذت أفكر في نصف كيلو من هذه اللحوم التي لا تدخل أفواهنا إلا في المناسبات مرة أو مرتين على الأكثر في العام، إلا أني عدلت عن الفكرة لارتفاع سعر اللحوم مقارنة بما جمعته من مال.

مررت بالباعة والحلم يحدوني في الظفر بقطعة لحم اشتهتها نفسي، فخطفني فكري إلى مائدة امتلأت جنباتها بأكوام اللحوم والأرز وبعض الخضار المطبوخ .

تحرك لساني الذي راح يداعب شفتاي برفق، إلا أنني فقت على صراخ أحد رواد السوق وهو يقول: «ما تفتّحي عينك يا بنت جاتك القرف، هتوسخي القميص»

- أنا أسفة يا بيه ما أخدتش بالي كنت سرحانة.
- سرحانة في إيه جاتك نيلة.
- معلش يا بيه حقك عليّ.

فقت من حلمي اللذيذ والأمل يحدوني واللحم يحرك أحشائي فسقطت عيناي على بائع الكرشة والفشة، فقلت في نفسي: ولما لا؟ أهي كلها لحمة، فذهبت إليه وسألته: إديني يا عمي سيد شوية كرشة وكام حتة فشة نتغدى بيهم.

- سارقة سريقة يا فوزية ولا إيه؟

- والله يا عم سيد إخواتي نفسهم في الظفر وأنت عارف الحال.
- أنتِ هتحكيلي قصة حياتك يا فوزية، خلصي يا بنت عايزة بكام؟
- بعشرة جنيه؟
- عشرة جنيه! عشر عفاريت لما يركبوكي، هي العشرة جنيه بتعمل حاجة الزمن ده.
- أهوه على قد لحافك مد رجليك.
- هاتيلك شوية فول أخضر على حتة جبنة قديمة وروحي على بيتكم.
- والنبي يا عمي سيد ما تكسر بخاطري.
- هجبلك شوية أحشاء بس هاخد 20 جنيه.
- ماشي يا عمي سيد الله يجبر بخاطرك.

أخذت بعض أحشاء العجل وانطلقت قاصدة بيتي وبينما أنا أمرُّ بالسوق اشتريت ربطة ملوخية وكيلو طماطم .

سابقت الريح مهرولة إلى البيت عبر طرق المدينة الواسعة التي عمَّ بها الامان بعد أن اكتظت الشوارع بالمارة حتى وصلت إلى بيتنا في أحد الأزقة الضيقة التي عبّرت عن حال كل القاطنيين فيها من الفقراء والبسطاء، فكل بيوت الزقاق تتصارع من أجل البقاء على قيد الحياة في صراع عنيف بينها وبين الطبيعة.

طرق باب بيتنا الخشبي فتحركت موسيقاه عندما فتح أخي الصغير الباب الذي جحظت عيناه تجاه ما بيدي .

- قال لي: جبتلنا إيه النهاردة يا فوزية يا رب تكوني جبتلنا لحمة، والله نفسي فيها يا أختي.

- جبتهالك يا حبيب أختك.

قفز أخي الصغير محمود من على الأرض مهللًا بالسعادة التي غمرته عندما تيقّن أنه سيأكل بعض اللحوم .

زلزل صوت أخي الرقيق أرجاء البيت وهو يقول: هناكل لحمة يا ولاد، فحمل محمود ما تيسر له حمله معي وانطلق إلى أمي التي كست وجهها السعادة فرحة بعودتي مبكرًا من السوق، وقد اطمأن قلبها الذي كان يدق خوفًا كلما خرجت مبكرة من البيت إلى السوق.

فتحت أمي الأكياس وراحت تعد العدة لطهو الطعام، وأخذت أنا أهذب أرضية البيت ببعض زعاف النخل الذي كان يصارع الأرض المضطربة رفعًا وخفضًا كي يستقيم حالها .

انتهيت إلى أن جلست على دكة الخشب البالية أريح ظهري وجسدي على فرشها البالي من الملابس الممزقة .

غفوت من التعب الذي سيطر على جسدي وعقلي ورحت أغوص في أحلامي التي حرمتني منها الحياة في انتظار طوق النجاة من واهب الحياة الذي لا يغفل ولا ينام عن أمثالنا من البسطاء.

طرت ببساط الريح إلى مدن الأحلام الكبيرة التي كنت أشاهدها في إعلانات شهر رمضان، وكنت أسأل نفسي إذ كان على الأرض مثل هذا الجمال، فكيف تكون الجنة التي صنعها الرحمن لمن اصطفى من عباده الاتقياء؟

عُدتُ إلى الواقع المرير بكل ما فيه لأشاركهم الطعام الذي أعدته أمي، سعدت عندما رأيت الفرحة في أعين إخوتي الصغار، وهم يأكلون ما حرمهم الفقر منه.

بينما نحن نأكل طرق الباب عرفه تاجر الخضروات، فعرفته من صوته الخشن وهو ينادي: يا بنت يا فوزية.

تركت الطعام وخرجت له، فأخذت منه جوالين من الباذنجان والفلفل، ووضعتهما داخل البيت، وطلبت منه الانتظار حتى عدت إليه ببعض النقود نظير حساب الخضروات التي بعتها، وتبقّى له الحساب الجديد، فهكذا كانت معاملاتنا معًا.

اسدل الليل ستاره وبدأتُ في التثاؤب حتى دخلت في النوم دون أن أشعر من عناء التعب الذي سيطر على ضلوعي.

فقت من نومي العميق على صيحات أذان الفجر الذي أيقظني من منامي، ورحت أفرغ جوال الباذنجان والفلفل في قفتي الكبيرة حتى استيقظت أمي من منامها، فساعدتني في حملها على رأسي.

انطلقت إلى السوق اتبع طريقي كعادة كل يوم، وقبل أن أصل إلى السوق استوقفني شابٌ مهلهل الملابس، يضع على شعره الطويل كاب أسود، غطى جزء من وجهه القبيح، فكان كثيف اللحية والشارب، وله أسنان صفراء معوجة .

- سألني: على فين يا حلوة؟!
- جاوبته بغلظة حتى لا يشعر أني لقمة سائغة: وأنت مال أمك.
- بالراحة شوية يا حلوة عشان أنا بتخض بسرعة.
- سلامتك من الخضة يا حيلتها، وسّع يا أمور خلينا نشوف أكل عيشنا.
- أشيل عنك شوية ومنها نتعرّف.
- والله العظيم إذ ما بعدت عني أبهدلك.

تراجع الشاب ثقيل الدم عن طريقي، وانطلقت بسرعة رغم حملي الثقيل إلى السوق، وإن ظل يتتبعني لبعض الوقت حتى اختفى بين المارة الذين بدأوا في الظهور.

وصلت السوق واتخذت مكان الأمس وبعت ما حملت ثم عدت إلى البيت كعادة كل يوم، وفي اليوم التالي سرت كعادة كل يوم وفجأة وجدت الشاب الثقيل بصحبة شابين مثله، فاستوقفوني مبرزين سلاح أبيض، وضعه الاثنان في جنبي، ثم حدثني الشاب الثقيل: يالا معانا براحة والا أغزك في بطنك وأخلّص عليكِ.

- على فين أنتَ وهوَ.

- هنقضي وقت حلو مع بعض.

شعرت حينها بالخوف بعد أن ملأ الرعب قلبي، فهرولت من أمامهم بعد أن ألقيت حملي الثقيل في وجوههم أركض بحثًا عن الأمان، لكن خطواتي الثقيلة لم تسعفني للإفلات منهم، فكانت سرعتهم أخف وأكبر من سرعتي.

أمسكوا بي وجرجروني بعد أن كمم أحدهم فمي إلى بيت خَرِب في وسط الطريق المظلم، فمزقوا ملابسي المهلهلة وأعتدوا عليّ، فأفقدوني أعز ما أملك في لحظة سيطر عليها الشيطان تحت ستر الرحمن.

نالوا مني فأخذوا ما أخذوا وأنا لا أفكر إلا في الستر الذي بحثتُ عنه منذ أن ولِدت، فلم يشفع لي فقري وسوء حالي أمام هؤلاء الشياطين الذين لم تأخذهم بي رأفة أو رحمة.

فرَّ الأنذال هاربين وتركوني ألملم ملابسي الممزقة وأنا لا أبالي بأي شيء سوى بالمصيبة التي حلت بي، فمزقت فؤادي قبل أن تمزق ملابسي البالية حتى وصلت إلى البيت، فلطمت أمي خديها بعد أن رأت حالتي فدخلتُ في غيبوبة طويلة، كلما فقت عدت إليها دون أن أشعر بأحد، إلا بدموع أمي التي انهمرت ونظرات إخوتي الصغار التي مُلئت خوفًا ورعبًا من المجهول الذي ينتظرنا.

- تلك هي قصتي يا أستاذ محمود منذ أن وعيت للحياة حتى حدثت تلك الفاجعة التي لا أصدقها رغم قوعها، فما زال الظن يغالبني وكأني في كابوس عميق لم أفق منه بعد .

تأثرت كثيرًا بما حل بهذه المسكينة، وطلبت منها أن تكف عن البكاء وقد تحوَّل المكان لساحة حزن بعد أن شاركت الأم بنتها البكاء والنحيب .

- قالت الأم: والله إحنا غلابة يا بيه، والله إحنا في حالنا لا عمرنا أذينا حد ولا اتكلمنا على حد، إحنا بنقول يا ستار استر وداه كل أمانينا في الدنيا ، لا معانا ظهر ولا سند، لكن أقول إيه» حسبنا الله ونعم الوكيل» .

تأثرت بما قالت وطلبت منهما إمهالي بعض الوقت لأفكر عن مخرج لهذه القضية الصعبة، فقد شعرت بالخوف الشديد لعدة أسباب منها أنها القضية الأولى التي أترافع فيها منفردًا دون دعم أو مساندة من أحد، وثانيهما حاجة سعيت لإخفائها حتى عن نفسي لكني لم أقدر.

انصرفا الاثنان وجلست وحيدًا أسترجع ما حدث لي فلقد لامست كلمات فوزية مكان الجرح القديم الذي كلما التأم فتحته الأيام دون رغبة مني، فقد دعوت الله مرارًا وتكرارًا أن تمحو الأيام

ما أخفيته عن الجميع وتحملت عنائه وتعبه وحدي دون مشاركة من أحد لكني لم أفلح.

لم أفلح لأني تحملت كل شيء وحدي فلم يحنو عليّ أحد في هذا الكون، لكني التمست العذر لهم نتيجة جهلهم بما حدث لي، وإن كنت ألوم نفسي في بعض الأحيان لكنني لم أستطع ولن أستطيع أن أتحدث أو أبوح عما حدث فالمجتمع لا يرحم.

قررت أن أعتذر عن هذه القضية فلم أتحمل حتى الحديث عن تلك الحادثة، فلكما تذكرت كلام فوزية استرجعت ذكريات الماضي، فقلت في نفسي ولِمِا هذا الألم والعذاب، فلماذا لا أصبر وأمهل لنفسي الوقت حتى تأتي قضية أخرى تكون مفتاح نجاحي كون هذه القضية خاسرة لا محالة.

هاتفت الرجل الذي جلب لي القضية وقدمت له اعتذاري عن المدافعة عن فوزية، فظن الرجل أن الأتعاب هي سبب رفضي فجاءني المكتب على عجالة وأعطاني خمسمائة جنيه كمقدم أتعاب.

رفضت أخذ المال وتعللت بأن القضية صعبة وتحتاج محامي كبير وأنا ما زلت في بداياتي وأخشى أن أخسر القضية ويضيع مستقبل الفتاة، لم يقتنع الرجل وأمهلني أسبوعًا أعيد فيه التفكير مرة أخرى.

مرة أخرى عاد الرجل صاحب العقار يحدثني عن القضية التي رفضت الخوض فيها لأسباب يعلمها الله، وبينما نحن جالسون

حضر أصدقائي القدامى وسمعوا ما قاله الرجل لكنهم لم يشاركوه الحوار وظلوا صامتين إلى أن انصرف.

بعد أن انصراف الرجل دخل معي أصدقائي في جدال حاد عن أسباب رفضي للقضية والحجج الواهية التي قدمتها لهم لكنهم لم يقتنعوا بما قدمت، وظلوا يعنفوني ويحفزوني على خوض التجربة الأولى في حياتي دون تردد.

إلتمست لأصدقائي العذر على تعنيفهم لي لأنهم ما أرادوا إلا نجاحي ومساندتي وحمايتي من نفسي التي لم تكف عن النبش في قبور الماضي السحيق.

استسلمت لضغوط كل من حولي وقررت خوض التجربة الأولى والتي سأواجه فيها الماضي بكل آلامه والحاضر بقسوته وأنا لا أعلم إذ كنت سأنجح في هذه التجربة أو سيلاحقني الفشل.

اتصلت بمالك العقار وطلبت منه أن يحضر فوزية وأمها لاستكمال إجراءات القضية، فشكرني الرجل الذي غمرته السعادة وأثنى عليّ وطلب مني بذل كل الجهد لاسترجاع حق البنت المسكينة.

حضرت فوزية وأمها بصحبة مالك العقار، فرحبت بهم وقلت لهم: أنا مش هقدر أقول غير حسبنا الله ونعمة الوكيل، وعايزكم كلكم يكون عندكم ثقة في ربنا عز وجل أن حق فوزية جاي جاي بس خلينا نوصل للعيال دي الأول وأنا هكمل الإجراءات اللي هتجيب حقها.

- كفكفت الفتاة المعدومة دموعها، ثم سألتني: هنعمل إيه يا أستاذ؟

- غدًا نلتقي أمام بوابة المحكمة لإعداد توكيل منك لي، للبدء في مباشرة العمل بالقضية.

- ردت الأم: إحنا من إيدك دي لإيدك دي يا أستاذ واللهِ إحنا لا حول ولا قوة لينا، فساعدنا لوجه الله عشان ربنا يسترها معاك دنيا وآخرة.

- أنتِ ليكِ معرفة بالولد ده يا فوزية؟

- أبدًا يا بيه لكن أنا لمحته كذا مرة واقف في موقف المكيروباص.

- كويس جدًا، إن شاء الله غدًا قبل ما نذهب للمحكمة نوصل الموقف مع بعض، هنتظرك أمام مسجد السوق الساعة 8 صباحًا.

- هكون في انتظارك يا أستاذ.

انصرفتا المسكينتان، وأخذني تفكيري إلى الانتقام بالقانون من هؤلاء الأشرار، فرحت أبحث في كتبي القديمة في بنود القوانيين التي تجرّم هذه الأفعال المشينة.

رغم البحث الطويل لم أكتفِ بما جمعت فرحت أبحث في الشبكة العنكوبتية عن مثل هذه القضايا حتى وصلت لما أريده.

أغلقت المكتب الخالي من الموكلين، وذهبت إلى البيت قاصدًا قسطًا من الراحة حتى جاء الصباح، فصليت الصبح وانطلقت إلى مسجد السوق، فوجدت فوزية في انتظاري.

صاحبتها وانطلقنا إلى موقف الميكروباصات نتصفح وجوه الشاب الضال، فلم تفلح محاولاتنا في البحث عن هذا الشقي .

طلبت منها الإنتظار، وبعد مرور ساعتين صرخت فوزية وقد أشارت بيدها اليمنى في اتجاه إحدى السيارات: أهوه يا أستاذ هو ابن الكلب.

ركضت فوزية باتجاهه وأمسكت به مطلقةً وابل من السباب والركلات في وجهه حتى شوهت وجهه ومزقت قميصه، وأنا أتبعها أشاهد ما يحدث حتى تجمّع حولنا جمعٌ غفير .

انخرطت فوزية في البكاء دون أن تفلت قميصه من يدها، فسأله السائقين: فيه إيه يا عادل؟ عملت إيه يا ابن الجزمة؟

لم تسكت أسئلة السائقين فوزية التي رددت: خربت بيتي، ضيعتني يا ابن الكلب، يا شرفي، يا وسخ يا ابن الكلب، ضيعتني حرام عليك.

تعاطف المتواجدين في موقف السيارات مع فوزية، فأحكموا قبضتهم عليه، وأوثقوه بأيديهم واقتادوه بصحبتنا إلى قسم الشرطة القريب من السوق.

فوزية لم تفلته من يدها رغم صراخها، وظلت على هذه الحالة طوال الطريق وهي تضربه على وجهه باصقةً عليه حتى وصلنا إلى قسم الشرطة.

- صرخ أمين الشرطة في وجوهنا على أثر صراخ فوزية بصوتها العالي، فيه إيه؟ ليه الدوشة دي.

- ردت فوزية: ابن الكلب ده ضيعني، ضيع شرفي، ثم بصقت على وجهه، فطلب منها أمين الشرطة السكوت حتى يعرض الأمر على ضابط القسم.

حضر الضابط فسكت الجميع، قدمت له هوية المحاماة، وعرضت عليه الأمر، وهو ينصت لِما أقول، وأمين الشرطة يدوّن بعد أن طلب منه الضابط فتح محضر.

- عرضت الأمر برمته على الضابط الذي وثب من مكانه بعد أن انتهيت وراح يتفحص المجرم عادل، ثم ضربه على وجنتيه يمينًا ويسارًا وسأله: أنت عملت كده يا ابن الكلب؟

- رد عادل: لا والله يا باشا، البنت دي كذابة .

لم تنتظر فوزية رد فعل الضابط على قوله، وراحت تكمل ما بدأه الضابط، وعادل مستسلم لضرباتها ووجه في الأرض.

- سأل الضابط فوزية: كان فيه حد معاه ولا لوحده.

- كان معاه اتنين يا بيه.

- وجَّه الضابط سؤاله لعادل: مين كان معاك يا حيوان؟

- تردد عادل في جوابه، فضربه أمين الشرطة ضربة قوية على خلف رقبته، أنطقته على الفور: اتنين صحابي يا باشا .

- أسماؤهم إيه؟
- الونش والألماني.
- هما فين دلوقت؟
- كانوا في الموقف، وفروا لما شافوا اللمة في السوق .
- تعرف بيوتهم فين؟ والا حابب تشلها وحدك؟
- عارف يا باشا.

طلب الضابط من أمين الشرطة أن يصحب عادل وبعض الجنود إلى بيوت رفقائه، فامتثل الأمين لأوامر الضابط واصحب عادل بعد أن قيده بالكلبشات الحديدية، وطلب منا الانتظار بأروقة القسم حتى يأتي الأمين بشركاء عادل.

عاد الأمين بخُفى حنين ولم يجد المجرمان اللذان لاذا بالفرار مختبئان بعيدًا عن أعين الشرطة، فطلب الضابط أن أحضر صباح غد برفقة فوزية لعرض الأمر على النيابة .

شعرت بالراحة بعد أن تم القبض على هذا الفاجر، ثم أخذت فوزية إلى المحكمة لإعداد توكيل القضية الذي أخذ منا بعض الوقت، ثم طلبت منها أن تنتظرني صباح الغد أمام قسم الشرطة لمعرفة موعد العرض على النيابة .

عدت إلى بيتي والسعادة تملأ قلبي الذي خفق من كثرة الحزن على ما ألم بفوزية، لكن في تلك اللحظات نسيت الألم بعد أن خطوتُ أولى خطواتي نحو النجاح في هذه المهنة التي يزاحمني فيها الكثير.

أخذت قسطًا من الراحة، ثم ذهبت إلى مكتبي المتواضع ألملم أوراق القضية وأُعد مسودة بما سوف أقوله في حضرة النيابة.

انتهيت من إعداد كل شيء، وقد لامست عقارب الساعة الثانية عشر صباحًا، عدت عقبها إلى البيت للنوم العميق انتظارًا لموعد الغد الذي جاء سريعًا عكس الأيام الخوالي التي هجرت فيها العمل في مكتب الأستاذ خالد.

جاء الصباح وكنت أمام قسم الشرطة برفقة فوزية عند الساعة السابعة صباحًا، دخلت القسم وسأل أمين الشرطة عن موعد العرض، فقال لي: الساعة 8 يا متر في مكتب رئيس النيابة بالمحكمة.

أخذت فوزية وتوجهت إلى مقر المحكمة وانتظرنا سويًا أمام مكتب رئيس النيابة حتى أتبعنا ضابط القسم وبرفقته عادل وأصحابه المطوقين بالجنود.

حضر وكيل النيابة، ثم مكث في مكتبه لبضع دقائق طلب بعدها ضابط القسم الذي أخذ الوقت الكثير برفقة رئيس النيابة، ثم أطلق

رئيس النيابة جرس مكتبه، فدخل الساعي وخرج مناديًا: فوزية والمحامي الحاضر معها.

فتح الساعي باب المكتب، ودخلتُ أنا وفوزية وكان رئيس النيابة يجلس على مكتبه يتصفح المحضر، والضابط يجلس على الأريكة التي أمامه.

قدمت نفسي له، فرحب الرجل بي، وطلب مني الجلوس بجوار الضابط، ثم سأل فوزية: احكيلي يا فوزية إيه اللي حصل؟

قصت فوزية ما قام به الذئاب الثلاثة منفجرةً في سيل من البكاء والنحيب ورئيس النيابة ينصت لها ولا يقاطعها، ثم طلب منها أن تنتظر خارجًا.

امتثلت لأمره، فسألني الرئيس عما حدث فقصصت ما قصته عليّ فوزية مستخدمًابعض ألفاظ اللغة الفصحى .

طلب الرئيس من الساعي أن يحضر المتهمين، فحضروا وقد بدت على وجوههم بعض أثار الضرب المبرح، فسألهم رئيس النيابة: فين عادل؟ فرفع عادل يده: أنا يا باشا.

- أنت هنا في المحضر اعترفت يا عادل أنك هتكت عرض فوزية؟
- أنا واصحابي يا بيه.
- تمام، احكيلي أنت عملت إيه؟

قص المجرم الأول ما حدث بعد حالة من الارتباك ألمت به أثناء حديثه، والضابط يتابعه بنظراته الحادة حتى انتهى، ثم طلب من الآخران أن يقصا عليه ما حدث، فتحدثا ملقيين اللوم على عادل الذي حرضهما على هذا الفعل.

طلب رئيس النيابة من كاتبه أن يدون قراره بإحالة المتهمين الثلاثة إلى محكمة الجنايات.

خرجت من النيابة تغمرني الفرحة عما حققته منفردًا برفق فوزية التي شعرت بالإطمئنان بعد قرار رئيس النيابة.

حلَّ المساء وجلست بالمكتب أقرأ في بعض المراجع لأعد مذكرة الدفاع أمام المحكمة في انتظار تحديد موعدها، وبينما أنا غارقٌ في البحث والتدوين دخل المكتب ثلاثة من الرجال دون استئذان وبدت على وجوههم علامات الغضب.

- رفعت رأسي وسألتهم: أنتو مين، فرد كبيرهم: إحنا أهل عادل.
- فسألتهم عادل مين؟
- عادل اللي وديته في داهية.
- عايزين إيه؟
- زي ما دخّلت ولدنا السجن تطلعه.
- بالبساطة دي، ومن غير أي مقدمات.

- عاد كبيرهم الحديث: شوف يا أستاذ أنت لسه شاب صغير، وأهلك عايزينك، هطلّع الواد منها ولا تستحمل اللي يحصلك.

- انتوا بتهددوني يعني؟

- رفع أحدهم سنجة طويله وأشهرها في وجهي قائلًا: آه بنهددك.

- حافظت على هدوئي رغم خوفي، ووجهت حديثي لكبيرهم: ابنكم اغتصب البنت وبهدلها وضيع شرفها، ده يرضيك؟

- رد الكبير: أه يرضيني.

- لو ده حصل مع بنت من بناتك، كنت هتسكت؟

- أه هسكت.

- والغلبانة اللي شرفها ضاع، تعمل إيه؟

- تسكت.

- كانت إجابتهم حادة فبدي لي أنهم عازمين على إنهاء الأمر بأي طريقة إن كانت، فقلت لكبيرهم: أنا لست صاحب القضية، إن تنازلت البنت أقدم التنازل وينتهي الأمر.

- فرد كبيرهم: وإن لم تتنازل.

- صرخت في وجهه: يبقى مفيش تنازل واطلعوا بره ولا أطلبلكم الشرطة.

- صاح أحدهم غاضبًا: إحنا هنخلص عليك قبل ما الشرطة تأتي لنجدتك.

- قلت له: وليه الشرطة، ما اضربك بالنار وأخلص، فحركت يدي في اتجاه درج مكتبي، فأمسك الكبير بها وأبدى معي لينه في حديثه: إحنا عايزين نخلص الموضوع من غير مشاكل.

- ما أنا قلت كده.

- ايه المطلوب يا أستاذ عشان نطلّع الواد.

- والله ممكن نتوصل لحل مع أهل البنت ويرتضي الطرفين.

- إيه هو الحل ده؟

- والله ما أعرف نسألهم.

- وامتى ترد علينا؟

- بكرة إن شاء الله.

انتهى الحوار وانصرف الجميع وبقيت أنا في المكتب وحيدًا أفكر فيما حدث، لكني عزمت أن أؤدبهم .

نمت حتى الصباح، قاصدًا قسم الشرطة حتى وصلت إليه مبكرًا حتى قابلت ضابط القسم وعرضت عليه ما حدث.

طلب الضابط من أمين الشرطة إحضار أبو المتهم، فأحضره بعد أن جلست برفقته حتى صارت بيننا صحبة بعد أن تبادلنا خلال

جلستنا ذكريات المذاكرة وأيام الثانوية العامة حتى حضر أبو عادل، فسألني الضابط: هو داه يا متر.

- أجبته: هو يا طارق بيه.

- أنت رحت للمتر وهددته في مكتبه ليتنازل عن القضية؟

- لا يا باشا، المتر فهم غلط، إحنا كنا عايزين نلم الموضوع، صح يا متر.

- رددت عليه بنفس طريقته السمجة: لا يا حاج أنت جيت ومعاك بلطجية وهددتوني في مكتبي.

- وجه طارق حديثه له: وكمان معاك بلطجية.

- فقلت: أيوه يا باشا ومعاهم سنج وسلاح أبيض.

- كمان سنج وسلاح أبيض، ما شاء الله.

- مين كان معاك؟

- أنا كنت لوحدي يا باشا.

- هتقول مين كان معاك ولا أعلقك من رجليك، وأنت مش حمل ضرب وإهانة، وحياة أمك يا البسك قضية تعدي يا روح أمك.

- أبوس على رجلك يا باشا، أنا رجل كبير ومش حمل بهدلة.

- لما أنت مش حمل بهدلة بتروح ليه تهدد المتر في مكتبه.

- أبوس فوق جزمة المتر، والله ما كنت أقصد أهدده.

طلبت من الضابط طارق الصفح عن الرجل المسن بعد أن هم لتقبيل حذائي، فأخذت عليه التعهدات بعدم التعرض.

تابعت القضية التي حددت لها المحكمة جلسة بعد شهر، وكان هذا الوقت عصيب يمر ببطء لتخوفي أن يضيع مستقبل الفتاة المسكينة نتيجة خطأ ما قد أسقطني فيه الشيطان دون أن أشعر.

هنا دارت رحى الحديث الذي لا ينقطع بيني وبين نفسي وسألتها: ماذا سأقول لأهل المسكينة إن ضاع حقها على يدي؟ وماذا سأقول للأستاذ خالد الذي ينتظر فشلي في أول تجربة أمرّ بها بعيدًا عنه؟ وماذا سأقول لنفسي بعد هذا العناء وهذا التعب الذي استغرق عدة أشهر بين أقسام الشرطة؟

تلك الأسئلة شغلت تفكيري وأنا انتظر موعد الجلسة الحاسمة التي لم تمثل نجاحًا بحق الفتاة فحسب، بل نجاحًا لي في أولى خطواتي نحو النجاح في مهنة المحاماة.

جاء اليوم الفصل، وكنت أعددت مذكرة مطولة بكل أحداث القضية مشفوعة بمحاضر الشرطة التي حوت اعترافات المتهين والتقرير الطبي عن حالة الفتاة والذي أثبت فض بكارتها.

حضرتُ إلى قاعة المحكمة مبكرًا،ثم توجهت أتفحص أرقام القضايا وكان رقم قضيتنا 25، وكان هذا الرقم هو الفصل في حياتي

المهنية، فهل سيكون هو الرقم السعيد على قلبي أم سيكون رقم شؤم في حياتي العملية والمهنية؟

دخلت القاعة وتابعت سير القضايا وأنا أرتجف خشية المجهول الذي قد يحطم كل أركان حياتي، إلا أن نادى الحاجب القضية رقم 25 .

تسارعت نبضات قلبي، فوقفت بعد تردد، تمام يا فندم محمود المحامي حاضر عن المدعية بالحق المدني فوزية السيد، فأذن لي بالحديث.

- دي مذكرة يا ريس بمحتويات القضية، فإذا سمحت لي بعرض نبذة قصيرة عنها إذا اتسع وقت المحكمة.
- اتفضل يا متر.

قصيت على القاضي على مرأى ومسمع من الجميع الجرم الذي وقع على الفتاة المسكينة، والذي مثل فاجعةً في حق كل فتاة مسكينة راحت تبحث عن قوت يومها بكل جهد وشرف، وما وقع من بعض الذئاب الذين روعوا حياة الناس وهددوا السلم والأمن الذي بحث عنه الناس جميعًا في هذا الوطن الكبير، وطلبت من المحكة تطبيق أقصى العقوبة على المجرمين ليبسط العدل سطوته محققًا الأمن والأمان لمن يعيش في الوطن .

انتهيت من مرافعتي القصيرة التي لم تتجاوز الخمسة عشر دقيقة والتي أنصت خلالها الجميع بهيبة ووقار بعدما أثارت الحادثة غضب الجميع تعاطفًا مع الفتاة المسكينة وتحقيرً الما فعله المجرمون في حقها وفي حق المجتمع.

طلب القاضي سماع أقوال ضابط الشرطة الذي جاءت أقواله مطابقة لما سردته أثناء المرافعة، ثم طلب سماع هيئة المحكمة التي طالبت بتوقيع أقصى العقوبة على المجرمين الثلاثة، ثم طلب القاضي من هيئة الدفاع عن المتهمين المرافعة.

جاءت مرافعة محامي الخصم ركيكة ضعيفة لغياب الحجة والدليل القوي الذي ينفي وقع الجرم ممن جاء ليدافع عنهم بعدما قدّم أدلة واهية لم تسمن ولم تغني عن جوع، لأن الحق حق شاء هو أم أبى، فالله لا يقف في صف الباطل أبدًا.

بعد سماع الجميع طلب القاضي رفع الجلسة للاستراحة لاستهلاك الوقت الكثير في هذه القضية على أن يكون الحكم بعد الاستراحة والمداولة .

عادت هيئة المحكمة بعد نصف ساعة، بدأ بعدها رئيس الجلسة في الحديث عن السلم والأمن الذي حبى الله به الوطن، ثم تحدث عن أخلاق الإسلام النبيلة التي تدعوا إلى مكارم الأخلاق بعدها

حكم بحكم تاريخي زلزل أركان المحكمة: تحويل أوراق الثلاثة متهين إلى فضيلة المفتي.

ضجت قاعة المحكمة الصياح بالتكبير.. الله أكبر، الله أكبر صاح بها كل من حضر وشاهد وقائع القضية، فعاد للمسكينة حقها وظفرت أنا بالنجاح الأول في حياتي المهنية، فكان ردًا على كل من تربص بي وراهن على خسارتي كونها القضية الأولى لي في حياتي المهنية.

الجلسة الثانية

«أسماء ضحية سواق التوكتوك»

النجاح الأول في حياتي المهنية حقق لي العديد من المكاسب وإن كان أكبرها بالنسبة لي هو انتشار اسمي واتساع شهرتي في جميع أرجاء المحاكم، فأصبحت في ليلة وضحاها حديث الجميع، فاستقطبت الشهرة الموكلين وتوالت القضايا على مكتبي المتواضع والتي تنوعت في حجم كبرها وصغرها، لكن الأهم بالنسبة لي كان استعادة الثقة القوية في نفسي بعد أن أصبحت لا أهاب المحاكم ولا القضاة، لمِا كنت أحمله من حجة بينة ومذكرة قوية تفصّل القضية تفصيلًا دقيقًا فتكون سببًا من أسباب النجاح .

لم أخفِ ما أبطنه لكني أعترف أن النجاح في القضايا حقق لي نوع من الثبات الانفعالي وكدت أنسى ما حدث لي وأنا طفل صغير إلا أن تلك القضايا كانت تذكرني بحادثة كم دعوت الله أن تمحوها الأيام من ذاكرتي لكني لم أفلح.

بعد هذا النجاح عاد بعض الحاقدين للظهور مرة أخرى لينغص عليّ حياتي وهو هاني ابن الجيران، وكان هاني ابن ضابط كبير ولوالده علاقات متشعبة لم تشفع له لتحقيق النجاح في مهنة المحاماة لتدني قدرته العقلية التي انشغلت بالعلاقات المشبوهة تارة وبشرب المخدرات ورفقة رفقاء السوء تارة أخرى.

زارني هاني في مكتبي المتواضع لتهنأتي على النجاح الذي حققته وإن لم يخفِ حقده بعد أن علل نجاحي على تعاطف القاضي مع موكلتي وليس لقوة مرافعتي وعملي الدؤوب في القضية، ولأني أعلم ما يخفيه هاني في صدره عقدت النية على أن أهذبه بطريقتي، فقلت له: إيه أخبار الشغل معاك يا هاني، أنت مش ناوي تفتح مكتب زيي وتعتمد على نفسك بدل ما تأخد مصروفك من أبوك؟

ضحك هاني ضحكة صفراء قال بعدها: أنت عارف ظروفنا الحمد لله مرتاحة والواحد مش محتاج شغل، غيرك أنت خالص يا محمود محتاج تصرف على بيتك وإخواتك البنات بعد ما مات أبوك، وأظن أن معاش الوالد مش هيكفيكم عيش حاف لو اتكلتوا عليه، فالشغل بالنسبة لي تقضية وقت مش أكثر.

أفحمني الحقير الذي عايرني بفقري وضعف حالي وحال أسرتي التي لم تملك من حطام الدنيا إلا القليل، لكني لم أبالِ به ولا بحديثه السمج، ورحت أرد له الصفعة التي صفعني إياها بالغمز واللمز.

قلت له : بس الفلوس اللي عملها أبوك من الشغل بتاعه في الشرطة لن تجعلكم من الأثرياء، ولما يطلع على المعاش هيبقى حالكم زي حالنا وممكن أقل شوية عشان هكون أنا اشتغلت وكونت نفسي، عشان كده نصيحتي ليك تشوفلك شغلانة تساعد بيها نفسك عشان تفتح بيت وتلم نفسك بدل الصرمحة والمشي وراء الساقطات.

– أهوه يا محمود فترة الشباب هعمل إيه؟

– ما تحاول يا هاني تشوفلك محامي سمعته كويسة لأن المحامي اللي أنت بتدرب عنده طرقه كلها شمال.

– هو فيه أحلى من الشمال.

– وعقاب ربنا يا عم هاني.

– نبقى نتوب يا سيدي قبل ما نموت.

– ربنا يهديك يا هاني ويصلح حالك.

– إن شاء الله يهديني، أستأذك لأني ورايا سهرة مع الشلة.

– لسه ماشي مع الأشكال دي اللي هتجرجرك وراها إلى التهلكة.

– البلد بلدنا وبعدين أخرتها إيه محضر، أكلم بابا يقطعه في التو واللحظة، أنت عارف اللي ليه ظهر ميضربش على بطنه في بلدنا، ولا إيه؟

- صدقت، شرفت يا هاني ومتحرمناش من قعدتك الظريفة.

- إن شاء الله مع السلامة.

- مع السلامة .

خرج هاني وعكفت على الاطلاع على القضايا التي بحوذتي بحثًا عن الثغرات التي تمكنني من الإستمرار في النجاح، وبينما أنا جالس دخل وكيل المكتب يطلب الإذن بدخول موكلين جدد لديهما قضية، أذنت له .

دخل الموكلين الجدد وكانا رجل وامرأة في الأربعينات من عمرهمها، وقفت مرحبًا بهما، وطلبت منهما الجلوس أمامي.

يا أهلًا وسهلًا بيكم خير إن شاء الله.

تحدث الرجل الذي بدا متماسكًا غير زوجته المنهارة تمامًا وبدا ذلك على وجهها المرهق الذي ملأته الدموع حزنًا، وقال الرجل: والله يا متر عندنا مشكلة كبيرة حدثت لبنتي أسماء قلبت حياتنا رأسًا على عقب، وإحنا مش عارفين نعمل إيه، لغاية لما ولاد الحلال دلونا عليك، وقالوا لنا إنك بتساعد الغلابة اللي زينا.

خير يا أستاذ، أنا متعرفتش باسمك.

أنا اسمي عبد الباسط موظف في الضرائب العامة، ودي زوجتي نوال بتربي العيال.

– خير يا أستاذ عبد الباسط إيه هي المشكلة.

– المشكلة يا متر إن في شابين سواقين توكتوك اتهجموا على بنتي.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، وإمتى ده حصل؟

– من شهر .

– عملتوا محضر في القسم .

– أنا لسه أم العيال حكيالي على اللي حصل أمس .

– الساعة كام دلوقت؟

– الساعة السادسة.

– تمام يالا بينا على القسم، وياريت يا ست نوال تجيبي أسماء وتحصلينا على القسم.

تحركنا جميعًا من المكتب في اتجاه قسم الشرطة الذي لم يبعد كثيرًا عن المكتب، وما أن وصلنا سألت على رئيس المباحث وكان موجودًا في مكتبه، فانتظرت حتى أتت نوال برفقة بنتها أسماء، وما أن جاءت حتى طلبت الإذن بالدخول على رئيس المباحث الذي أذن لنا بالدخول .

صافحت الرجل المهذب فصافحني بابتسامته المعروفة بعد أن صارت بيننا ألفة، وطلب منا الجلوس وكان برفقته بعض الضباط الشباب.

- خير يا متر.

- عندنا مشكلة كبيرة معاليك وطبعًا مفيش حد هيساعدنا في حلها غير معاليك.

- اتفضل يا متر.

أشرت إلى أسماء التي رافقت أمها وكانت في حالة لا يرثى لها، وقلت له: أنا أحضرت أسماء معي كي تقص بنفسها ما حدث على مسامعك.

- خير يا أسماء يا بنتي إيه اللي حصل.

ارتبكت أسماء واحمر وجهها خجلًا، فطمأنها رئيس المباحث ببعض العبارات، ثم طلب من الضباط الشباب المرافقين له مغادرة الغرفة حتى يستدعيهم مرة أخرى، فانصرفوا في هدوء.

- ها يا أسماء احكيلي اللي حصل.

أنا يا افندم كنت باخذ درس رياضيات وبعد أن أنتهيت من الدرس في إحدى المناطق القريبة من منطقتنا وقفتُ في الشارع المتكدث بالمارة أنتظر وسيلة مواصلات تقلني إلى محل مسكني وكانت برفقتي إحدى صديقاتي.

مر الوقت سريعًا دون أن أجد مكانًا في سيارات السرفيس المزدحمة، نظرت إلى ساعة هاتفي النقال فوجدت أن الوقت تأخر

فهاتفت أمي، فأشارت علي أن أستقل توكتوك، فعرضت على صديقتي أن تشاركني، فرفضت وتعللت أنها ستنتظرت أباها كي يأتي ليأخذها.

انسقتُ لأمي طوعًا لأوامراها، فأشرت إلى أحد سائقي التوكتوك فوقف على الفور، وكان شابًا يافعًا في العشرينات من عمره، وكنت متزينة مثل قريناتي في نفس العمر.

ركبتُ التوكتوك وأنا لا أعلم ما الذي يخبئه القدر لي حتى انطلق التوكتوك الذي انبعثت منه صخب الأغاني الهابطة بسرعة في رعونة من سائقي تلك المركبة التي هبطت إلى مصر لتزيد من معاناة الناس بدلًا من توفير الراحة لهم، حاول الشاب فتح الحديث معي فاستجبت لأخبره عن مقصدي.

- على فين إن شاء الله يا أبلة؟

- آخر شارع عبد الحميد رضوان أول منطقة أبو يوسف.

- تحت أمرك يا أبلة، هو أنتِ كنتِ فين؟

- أنا لسه مخلصة درس الرياضيات.

- بس ده بعيد عن بيتك.

- أه بس أعمل إيه، الدروس وقرفها.

أخذ الشاب العتي يتمايل بمركبته بين السيارات كعادة سائقي تلك المركبة، وأنا لا أبالي بما يفعل ربما لأني اعتدت مثل هذه الحركات

عند تلك المركبات، وبينما كان السائق يقوم بحركاته البهلونية هاتف أحد أصدقائه.

لم أعر لكلامه أي إهتمام، وبعد وقت ليس بالكثير اتخذ السائق إحدى الشوارع الشبه خاوية من المارة، فسألته عن السبب بعد أن تسلل الخوف إليّ، أنت رايح فين؟

- بنختصر يا أبلة الطريق عشان زحمة الشوارع.

- يعني كده هنوصل بسرعة.

- أه طبعًا عشر دقايق وتكوني في البيت.

- تمام، بس يا ريت بسرعة لأني اتاخرت على البيت.

- عشان كده أنا بختصر الطريق.

في منتصف الطريق توقف التوكتوك، فأصبت بالفزع، فراح الشاب يطمئنني متعللًا بحدوث عطل مفاجيء في التوكتوك، تلفتُ يمينًا ويسارًا فوجدت نفسي وحيدة في طريق خلا من المارة. .

إلتف سائق التوكتوك حوله متظاهرًا بقيامه بإصلاح العطل الذي وقع، وفجأة قدم إلينا شاب يسأل السائق عما حدث، فقال له إن عطل وقع بالمركبة لا يعرف سببه، فطلب الشاب مني أن أنزل من التوكتوك لدفعه للأمام في محاولةٍ منهما لتحريكه.

استجبت له طواعية، فجأة قاداني الشابان بقوة داخل إحدى البنايات السكنية تحت الإنشاء وهما يتلفتان يمينًا ويسارًا، وهنا وقعت الواقعة، فكتم أحدهما فمي بيده وجردني الآخر من ملابسي وتناوبا على اغتصابي الواحد تلو الآخر وأنا لا أملك إلا الصوات والصريخ.

انتهى المجرمان من فعلتهما بعد أن تركا جرحًا عميقًا في صدري لم تمحه الأيام وإن طالت بعد أن قضوا على بكارتي بلا رأفة ولا رحمة، ارتديت ملابسي لستر عورتي، بينما جلسا المغتصبان يدخنان سجائر الحشيش.

انطلقت مهرولة خارج البناء، فأتبعني السائق يهدىء من روعي ويحذرني من قص ما حدث كي لا أجلب لنفسي الفضيحة والعار، فطلب مني الصمت لتداوي الأيام جرحي حتى اصطحبني مرة أخرى إلى التوكتوك مكرهة غير مخيرة.

وصلت البيت وتظاهرت بالتعب من عناء الطريق ودخلت في غيبوبة من البكاء دون أن أشعر، ومرت الأيام تلو الأخرى، وأنا أبحث عن مخرجٍ مما ألم بي لكن أين المفر .

قررت في لحظة جرأة أن أتخلص من هذا الألم فصارحت أمي بما حدث، لطمت الأم على وجنتيها وهذا ما كنت أخشاه وبدلًا من

أن تهدييء من روعي راحت تولول وتقول: يا لهوي يا فضيحتي أقول لأبوكي إيه .

- هي دي القصة من البداية إلى النهاية يا افندم.

- متخافيش يا أسماء حقك هيجيلك لغاية عندك، المهم أنتِ تعرفي سواق التوكتوك؟

- لا يا افندم .

- ممكن توصفيلي شكله؟

هو أسمراني ومش طويل، شعره مجعد وقصير، وكان لابس بنطال جنز أزرق وقميص أبيض مهلهل ولابس سلسلة في رقبته، وفيه غرزتين في وشه.

تمام والعيل اللي كان معاه تقدري توصفهولي؟

أه هو تقريبًا في نفس السن، بس التاني أبيض صوته تخين وشعره طويل ولابس خاتم فضة كبير في إيده ولابس قميص كورة أبيض بتاع نادي الزمالك .

أنتِ أخدتي التوكتوك من فين؟

من أول شارع العشرين عند موقف الميكروباصات، كان معدي قدامي ووقفلي وركبت معاه.

- تمام يا أسماء، لو شفتي العيال دي تقدري تتعرفي عليهم.

- أكيد يا افندم .

استدعى رئيس المباحث الضباط الشباب وقال لهم: تنزلوا موقف العشرين وتجبولي كل العيال بتوع التكاتك اللي هناك، ثم طلب منا الانصراف على انتظار مكالمة منه .

عدت لمكتبي، وبعد الساعة الحادية عشر صباحًا تلقيت هاتفًا من رئيس المباحث يطلب مني الحضور أنا وأسماء.

هاتفت الأستاذ عبد الباسط وطلبت منه أن يحضر هو وأسماء إلى المكتب لنذهب سويًا إلى قسم الشرطة، وبعد نصف ساعة حضر الرجل برفقة ابنته، وانطلقنا سويًا إلى القسم القريب من المكتب قاصدين مكتب رئيس المباحث الذي كان بانتظارنا.

ولجنا إلى المكتب وجلسنا ثم طلب رئيس المباحث من أحد الضباط عرض المشتبه فيهم، ودخل بعض سائقي التوكتوك مصطفين صفًا واحدًا، ثم أمسك رئيس المباحث بيد أسماء ووقف يتفقد معها طابور العرض.

مرت أسماء أمامهم خائفةً تتفحص وجوههم إلى أن انتهت من تفحص الجميع، إلا أنها لم تعثر على أي أحد منهم، طلب الضابط من أسماء أن تتفحصهم مرة أخرى لكنها لم تتعرف على أحد.

طلب الضابط من أسماء أن تدلي بأوصافهم، فأدلت أسماء بأوصاف الاثنين، فلم ينطق أحد من السائقين، فصرخ رئيس المباحث فيهم: النهاردة هتتعلقوا لغاية لما تعرفولي العيال دي معرفتوش هنفوخكم النهارة.

التفت السائقون بعضهم لبعض وأيديهم ترتعش، فعاد رئيس المباحث بسؤالهم اللي يعرف العيال دي ينطق والا تحبوا تشرفونا شوية لغاية ما تفتكروا.

التفتوا جميعًا بعضهم لبعض، فأمسك رئيس المباحث بأحدهم من كتفه بعنف وقال له: انطلق يا ولد العيال دي فين واسمهم إيه؟، ثم صرخ في الجميع انتوا طبعًا عارفين أنا بتكلم على مين وهتدوني أوصافهم وأسماءهم والنهاردة وإلا أقسم بالله هلبسهالكم يا أشكال وسخة.

- تمتم الممسوك بمعصم رئيس المباحث أعرفهم يا باشا.

- حلو خالص، مين يعرف بيوت العيال دي؟

- كلنا نعرف بيوتهم يا باشا.

اطلع يا ولد مع الباشا، وأنت يا رأفت بيه خد أفراد معاك ومترجعش غير بالعيال دي، وانتو يا بهوات على الحجز عشان تشربوا القهوة عشان لما اسأل يا كلاب تردوا من أول مرة.

انتظرنا خارجًا على إحدى المقاهي المتاخمة للقسم حتى حلت الساعة الثانية صباحًا رن جرس الهاتف وإذ به رئيس المباحث يطلب منا الحضور .

انطلقنا مسرعين إلى مكتب رئيس المباحث فوجدنا شابين مكبلين بالحديد واقفين أمام رئيس المباحث بدت على وجوههم بعض علامات الضرب المبرح، وإن ظل رئيس المباحث يبوخهما ببعض الكلمات البذيئة.

طلب منا الجلوس، والتفت إلى أسماء هما دول الصيّع.

أيوه يا افندم هما دول.

اطمني يا أسماء حقك مش هيضيع طول ما أحنا موجودين هنا، فشكرت رئيس المباحث على سرعته في الإمساك بهما، فارتسمت السعادة على وجهه حتى بدت أكثر من سعادتي كونه أمسك بالمجرمين بسرعة تدل على خبرته ويقظته في البحث، بعدها طلب رئيس المباحث منا الحضور صباح الغد لاستكمال المحضر، ومن ثم العرض على النيابة.

انتهت القضية قبل أن تبدأ بتوفيق من الله عز وجل وأحيل المتهمون للجنايات.

الجلسة الثالثة

«أب تجرد من الإنسانية»

عاد حق أسماء وسجل نجاحي في قضيتها إضافة لي في تاريخي المهني الحافل بالإنجازات، فكلما اجتهدت ارتقيت وحققت ما لم يحققه الآخرون بتوفيق من الله حتى توالت النجاحات تلاحق بعضها بعض وأصبح باب مكتبي لا يُوصد إلا في ساعات متأخرة من الليل بفضل الله عز وجل الذي فتح عليّ من حيث لا أحتسب، ووسع الله الحال على أسرتي من المحال إلى أحسن حال.

دخلت السعادة أرجاء البيت بعد أن هجرته لسنوات طويلة بعد موت أبي الذي كان يظلل عليه من كل حدب وصوب بعد أن تدفق المال إليه، لأن المال مصدر السعادة التي تذلل الصعوبات وتريح البال وتحقق قدر كبير من الاستقرار والهدوء والطمأنينة، تلك نعمة لا يدركها إلا من عاش في فقر مدقع وجرب تقلبات الدهر التي تبطش بالفقراء دون الأغنياء.

أصبحتُ مصدر سعاد هذا البيت البائس بعد أن صرت ربًا له بعد أن غيّب القدر السند والدهر لسنوات عجاف لا يشعر بها إلا من عاش يتميًا بلا أب يعول ويربي وينصح ويرشد ويوجه.

ذات يوم جاءتني إحدى جاراتي وكانت امرأة في مقتبل الأربعين من عمرها حشمة وقورة لا أحد يسمع صوتها ولا صوت بناتها، إلا من بعض منغصات الحياة التي يعيشها كل بيت من بيوت الفقراء، فكنت أسمع صراخ المرأة من حين لآخر في ظلمات الليل دون أن أعر لها إهتمام لإيماني أن لكل بيت أسراره التي لا يعلمها إلا من عاش فيه.

جاءت المرأة محملة بثقل الجبال وكأن هموم الدنيا وضِعت فوق رأسها، فكانت تتأرجح في مشيتها وكأنها ثملة لا تعي بمن حولها، لكنها كانت واعية لما تقول عندما حدثتني عن فاجعتها التي لا يتحملها إلا الصلد الشداد من البشر الذين قوّتهم الحياة بصعوباتها التي لا تنتهي.

– إيه الحكاية يا أم أشرف خير إن شاء الله، شكلك كده عجزتي بدري ولا إيه!

– لا والله يا متر، هعمل إيه نصيبنا كده.

– كان الله في العون يا خالتي أم أشرف.

– أنت ساكن جنبنا يا متر وأكيد عارف أني من يوم ما وعيت على الدنيا وأنا في حالي لا بتاعة مشاكل ولا قيل وقال.

– والله الكل يشهد لك يا خالتي أم أشرف ونعمة التربية.

– ربنا يكرمك يا أستاذ محمود.

- طمنيني إيه الحكاية؟

أنا في مصيبة يا أستاذ محمود، ومش عارفة أعمل إيه ولا عارفة أروح ولا أجي، فقلت أجيلك تشوفلي حل للمصيبة اللي أنا فيها.

إن شاء الله مفيش مصيبة ولا حاجة كله مقدور عليه طول ما أنتِ بصحة وبخير.

الصحة راحت والحال مبقاش زي الحال يا متر، الحكاية عشان مطولش عليك هي إن أبو أشرف تعبنا وتعب عياله معاه وأنا خلاص هنفجر مش عارفة أعمل إيه.

كملي يا أم أشرف وبطلي عياط عشان أفهم منك إيه اللي حصل بالضبط.

نحن مثل كل البيوت ننتظر الليل أن يدخل كعادته ليبعث الراحة والسكون علينا لكن سوء حظنا أن بيتنا غير كل البيوت حتى البيوت الرقيقة الحال التي يهجرها الزاد والزواد أحسن من بيتنا، فما أن يدخل الليل حتى يأتي السكير شارب المخدرات فيقلبه رأسًا على عقب .

اعتدنا على هذا المشهد في كل ليلة إلا أثناء مرضه الذي نتمنى أن يطول كي نأخذ قسطًا من الراحة من رب هذا البيت الذي لا يفرّق بين الحلال والحرام.

توالت الأيام وأصبحتُ لا أبالي به ولا بصرخاته طوال الليل لعلمي أنه تحت تأثير المخدرات وما سيحدث بعد هيجانه هو تكسير إحدى قطع الآثاث أو الأواني المنزلية .

في النهاية أحمد الله على ما حدث وأروح ألملم وراءه في الصباح آثار ما فعل، ليعود للبيت سكينته بعد أن يخرج عمك شعبان إلى عمله في سمكرة السيارات .

لا أشعر بالدم الذي يسري في عروقي أنا وبناتي ندا ومي إلا بعد خروج عمك شعبان إلى الورشة، ليعاود كرته في ساعات متأخرة من الليل، فتبدأ حياتنا بعد طلوع النهار في معاناة أتحملها وحدي وأسرتي الصغيرة من ربها الذي لا يتقي الله في أهله.

زادات معاناتي عندما بدأ عمك شعبان في الاشتراك في إحدى المحطات المخلة بالآداب، فكان يشاهد الأفلام الإباحية في وسط البيت، وهو لا يبالي بي وببناته اللاتي لا يملكن شيء إلا الصمت .

رويدا رويدا بدأت الفاجعة حين بدأ في مشاركة بناته مضجعهما وبدأ في مضيقاتهما، شكت الفتيات الصغيرات لي صنيع أباهن معهن، فواجهته فضربني ونهرني مبررًا بكذب بناته.

كنت أقول له يا شعبان عيب عليك يا شعبان حرام اللي بتعمله مع البنات، و كان رده: هو إيه اللي أنا بعمله يا بنت الكلب، هو عشان بشرب مخدرات تتهميني في شرفي يا بنت السافلة.

كنت برد عليه وأقوله: يا راجل عيب عليك، ده أنا شيفاك بعيني بالليل، كان رده عليّ يا فاجرة هو انتي فاكراني زيك وسخ، عليا الطلاق لو ما بطلتي كلام في الموضوع ده لأكون رميكم في الشارع.

حينها ضربني ضربًا مبرحًا بما طالت يداه من آثاث البيت، حتى تهمشمت رأسي وسال منها الدم، فانخرطتً في البكاء والصمت خشية الفضيحة، وكنتً أضع قماشة بالية على رأسي لأوقف الدم المتدفق.

كان في كل مرة يترك البيت ويخرج إلى عمله غير مبالي بما لحق بي من أذى، وعندما يسدل الليل ستاره يعاود كرته ويبدأ في تدخين سجائر الحشيش وهو يتابع مشاهدة الأفلام الإباحية التي ملأت البيت ضجيجًا وآهات بما يغضب الله عز وجل.

طفح الكيل بعد أن زادت مضايقاته لبناته فما كان أمامي من سبيل إلا الذهاب إلى قسم الشرطة لشكواه لتأديبه لكي ينصرف عن أفعاله التي لا ترضي أحد عليى وجه البسيطة.

أخذوا عليه التعهدات ومكث في القسم عدة أيام عاد بعدها وحش كاسر يبطش بكل من في وجهه، فحوّل حياتنا إلى نكد وركد بعد أن حول ليلنا إلى نهار ونهارنا إلى ليل، فماذا أفعل في المصيبة التي حلت بنا؟

– أنتِ تقدري تدبري حالك من غير أبو أشرف؟

- طبعًا أقدر هو ربنا بسيب حد.

- هتصرفي من فين؟

أنت فاكر يا أستاذ هو اللي بيصرف، هو مضيع فلوسه كله على المخدرات، لولا ماكينة الخياطة كنا شحتنا أنا والبنات في الشوارع.

- يعني وجوده زي عدمه معاكم.

- أيوه والله وجوده زي عدمه، لكن عدمه أحسن لنا.

- أنتِ معاكِ تلفوني يا خالتي أم أشرف؟

لا والله يا أستاذ، هاتي أسجلهولك، وأنا عايز منك حاجة صغيرة لما تشوفيه بيشرب حشيش ومشغّل الأفلام تتصلي بيا وأنا هتصرف معاه، والا تحبي أكلمه الأول.

يا لهوي يا أستاذ ده لو عرف أني جتلك هيبهدلني أنا والعيال ومش بعيد يرمينا بره البيت، أنا جبت كل أخواته ولا حد قادر عليه حتى اصحابه عجزوا معاه ومفيش فايدة.

- تمام اتفقنا أول ما يبدأ شرب اتصلي بيا وأنا عليا الباقي.

- بإذن الله يا متر.

انصرفت أم أشرف وتركت في صدري جرح عميق مما يفعله الغافلون عن ذكر الله والذين ارتموا في أحضان الشياطين فأصبحوا

عابثين بكل تعاليم الدين، بعد أن خرجوا عن المألوف من العادات والتقاليد التي يتمتع بها مجتمعنا المحافظ، فلسنا من سكان أوربا ولست دولة منفتحة حتى يُباح فيها المحرمات التي تغضب رب البريات.

مرت عدة أيام وبدا لي أن أم أشرف انصرفت مما عزمت عليه حتى كدت أنسى الأمر برمته، فقلت في نفسي ربما أصلح الله الحال واستقرت الأمور بينهما، إلا أنني وذات يوم وأنا أطالع بعض ملفات القضايا في مكتبي شتت صوت هاتفي أفكاري فصرفني عما أنا فيه، وكانت أم أشرف هي من تهاتفني.

- السلام عليكم يا متر.

- وعليكم السلام يا خالتي أم أشرف.. خير.

هو دلوقت شارب حشيش لما عميان ومش دريان بأي حاجة وهايج في البيت واتهجم على البنات لولا ستر ربنا كانت حصلت مصيبة، ولما حشته عنهم كسر دماغي وأنا متسبحة دم من ساسي لراسي.

اتصلت بشرطة النجدة وسارعت إلى بيت أم أشرف لأستقبلهم أمام البيت، فالمرأة وحيدة لا تملك من الأمر شيء ولذلك فضلت أن أكون موجود معها.

تركت مكتبي قاصدًا بيتها فوصلت إليه وكانت الشرطة قد وصلت للتو، وصعدت معهم إلى شقتهم المتواضعة فرأيت الرجل في حالة

هيجان بعدما أحدث ثورة عارمة في البيت جراء تحطيمه معظم ما فيه، فقبضت عليه الشرطة وهو على حالته لا يعي من الأمر شيئًا.

قام ضباط الشرطة باستكمال جميع الإجراءات بعد إجراء تحليل دم لأبو أشرف، وتم عرضه على النيابة التي حولت الأمر برمته لمحكمة الجنايات التي حكمت عليه بالسجن لمدة خمسة سنوات مع النفاذ.

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أهل السجين تغمرهم الفرحة بعد النطق بالحكم على هذا العاصي بالسجن، ربما للراحة والسكينة التي ستعود إليهم بعد أن فزعهم الأب الضال في مضاجعهم، وانتهت القضية التي لم أحصل فيها على أتعاب رفقةً بحال أهل البيت.

الجلسة الرابعة

«نرمين المعاقة ذهنيًا»

جاءت أم أشرف وشكرتني بعد أن ذاقت طعم الراحة التي هجرت بيتها منذ سنين، وبينما هي جالسة جاءني رجل مُعاق برفقة زوجته وقد بدت على وجهه علامات الارتباك الشديد عندما التقت عيناه عيناي وإن كانت طالت نظراته إلي لسبب ما لا أعرفه إلا أنني رحبت بهما وطلبت منهما الجلوس لأعرف سبب مجيئهم إليّ.

شعرت أم أشرف بالحرج فأعادت بعض كلمات الشكر والمديح وانصرفت، ثم بدأ الرجل المعاق حديثه قائلًا: أنا يا أستاذ محمود رجل على باب الله ومعنديش رزق غير كشك صغير باكل منه عيش ببيع فيه شوية حلويات لعيال المدارس وكام نوع سجاير وأهوه شوية من هنا وشوية من هنا على شغل أم العيال على ماكينة الخياطة فاتحين البيت.

معانا يا باشا ثلاثة أطفال منهم واحدة معاقة تعبانة من يوم ما اتولدت لأنها عايزة عناية غير باقي إخواتها ومش عارفين هتكمل

حياتها أزاي إذا قابلنا وجه كريم، لكن بنعمل اللي علينا والباقي على الله.

المصيبة يا باشا أن بنتنا المعاقة حصلتها مصيلة كبيرة وإحنا مش عارفين نعمل إيه وولاد الحلال دلونا عليك.

قص الرجل قصته برفقة زوجته فزاد من آلامي وأحزاني وطلبت منه أن يمهلني الوقت كي أجد مخرجًا لما ألم به، ولم يكن طلبي الوقت الفسيح رغبة في الإطلاع أو البحث أو التفكير في المال بل كان بسبب جرحي القديم الذي سعيت أن أغلقه للأبد، ولسوء حظي أن معظم القضايا التي توالت على مكتبي كانت بعنوان واحد لا يتغير إلا وهو «هتك عرض»

هذه القضية لفتاة اسمها نرمين في السابعة عشر من عمرها معاقة ذهنية لا تدرك معنى الحياة ولا قسوتها في غياب تام عن الوعي بأمر من الله.

منذ ولادتها ويعاني أهلها الألم على حال المسكينة التي لا تعرف قضاء حاجتها، فهم يحاولون توفير ما تيسر لهم لتستكمل المسكينة حياتها في هدوء انتظار لقضاء الله وقدر ، حتى لا يشعر الزوجان بتقصيرهما في حق المسكينة التي لا تعرف معنى للحياة.

كانت نرمين تعيش حياتها برفقة دمية تكاد لا تفارقها حتى أثناء نومها، وكان يتردد على بيتهم أولاد أعمامها وأخوالها، كان ينفر منها

أقرانها خشية أن تصيبهم بمكروه إلا القليل منهم أبدى تعاطفه مع تلك البائسة.

كانت نبيلة لا تترك بنتها الصغيرة وحيدة عندما تخرج خشية أن تصيب نفسها بمكروه، وفي إحدى الأيام خرجت في عجالة بعد أن علمت أن أمها دخلت المستشفى، فتركت نرمين بصحبة ابن خالها عماد، وعادت الأم لتجد أثار الدماء على ملابسها ففتشت جسدها لتجد المفاجأة، آثار الدماء على فرجها.

بعد أسبوع حضر إليّ الرجل المعاق وطلب مقابلتي فأذنت له ورحبت به، ثم سألني عما فعلته من أجل قضيته، فبهتَ وجهي لأني لم أقدم لقضيته أي اهتمام، واكتفيت بالصمت لعجزي عن الكذب أو النطق بما لم أفعله من أجله.

هنا انخرط الرجل في البكاء مستنجدًا بي وعرض أن يبيع كل ما يملك من أجل حق ابنته المعاقة بعد أن اختفى خالها وابن خالها عن المشهد تمامًا تاركين مصير الفتاة للمجهول وأهلها في عذاب وجحيم.

اعتذرت للرجل بأدب وتعللت له بمرضي أمي الواهي كونه هو السبب في عدم الرد عليه طليت الأسبوع الماضي، ثم طلبت منه أن يصاحبني غدًا إلى المحكمة لعمل توكيل منه إليّ كي أباشر العمل في القضية.

سعد الرجل بموافقتي على الدفاع عن ابنته القاصر ربما لأنه لم يجد من يدافع عنها أو يقف بجانبه، وشعوره بالعجز عن فعل شيء لهذه المسكينة بسبب الإعاقة التي لحقت بها، ولقد لمست كل هذا من نظرات الرجل التي بعثت على الحسرة والألم.

كان الرجل يتحدث عن معاناته وكنت أنا مشغول بنظرات التي أصابتني بالحيرة فإحساسي لم يكذبني من قبل، لأني عندما أرى شيئًا لم أنساه يومًا وإن مرت عليها العقود، لكني لم أفلح هذه المرة لسبب يعلمه الله وحده.

تواصلت مع الرجل المعاق وباشرت العمل في القضية لكن أهل الطرفين خشوا على ضياع مستقبل ابن العائلة وأرادوا الستر للجميع، فحضر الرجل المعاق بعد أسبوع من رفع القضية أمام المحاكم برفقة والد الجاني ورجلين من أهلهما لا أعرفهما وطلبا الصلح وعقد قرآن ابنهم على الفتاة المعاقة للستر عليها، وإن كنت أعلم أن غياب العقل لا يتمم هذا الزواج الذي سعى فيه والد الجاني للملمة الأمر خشية الفضيحة وبهدلة المحاكم.

رحبت بهذا الصلح الذي يحفظ حق الفتاة وقد دونت بيدي شروطه وقد سجلت مؤخرًا كبيرًا حتى لا يعبث الزوج بهذه المسكينة حفظًا لحقها.

انتهى الأمر بستر من الله حفظ ماء وجه الأب المعاق وابنته المعاقة ولم شمل العائلة الذي أحرقته النار وأطفأته ماء المصالحة ليعودا من جديد أهل وأحبة بعد أن أوشك الهلاك أن يفتك بهما، وسألت الله عز وجل أن يلملم الشمل فربما تداوي الأيام هذا الجرح الغائر بعد الزواج المبارك من الطرفين.

«فاطمة بنت الملجأ»

بعد أَنْ حُلتْ قَضية نرمين بطريقة ودية جاء أبوها ليقدم لي ما تيسر له من بعض المال نظير ما قمت به، فرفضت أي أتعاب ليس لصغر ما قدمه لي ولكن لعلمي بضيق حالهم.

لم يخفِ الرجل سعادته التي أضاءت وجهه بعد أن أطفأت الأحداث الماضية مصابيحه، فعاد للحياة بعد أن أوشك على الموت، فبادلته الشعور نفسه بعد أن ارتاحت سريرتي وأطمأن قلبي على بنته المسكينة التي غاب عقلها وسبح في ملكوت أخر من ملكوت الله.

همَّ الرجل بترك مكتبي، فدخلت علينا فتاة في العقد الثاني من عمرها بدا على وجهها علامات التعاسة والفقر المفجع.

تأثرت بها عندما رأيتها وتذكرت أول قضية فتحت لي باب المستقبل على مصراعيه «قضية فوزية» رحبت بالفتاة وأنا لا أعرفها ولا تعرفني، ثم سألتها عن حاجتها.

أنا يا أستاذ محمود سمعت عنك أنك بتساعد الغلابة، وأنا غلبانة مليش حد، ومش عارفه أعمل إيه؟

خير إن شاء الله، إن شاء الله هعمل اللي ربنا يقدرني عليه، بس احكيلي إيه اللي حصل عشان أقدر أساعدك.

أنا اسمي فاطمة أعيش في ملجأ للأيتام، فأنا لا أعرف من أين جئت ولمن ينتسب اسمي لا أعرف أبي ولا أمي، ثم بدأت الفتاة في البكاء والنحيب وأنا لا أفهم ما وقع لها، فطلبتُ منها أن تقص قصتها كي أفهم.

خرجت من دار الأيتام طمعًا في تحطيم الجدران التي طوقتني منذ أن جئت إلى هذه الحياة، فارتديت عباءتي التي لا أملك غيرها وخرجت إلى عالم مجهول لا أعرفه إلا من خلال شاشات التلفاز.

معرفتي بالحياة لم تتعدى أسوار الملجأ الذي نشأت وعشت فيه، فقفزت وعقدت العزم على تحطيم كل شيء وانطلقت حرة طليقة فرحة بالمجهول الذي لا أعرفه.

تفتحت عيناي لأول مرة على الطريق المكتظ بالمارة والسيارات وأنا في حلم الحرية امتطي أولى خطواته، فرُحتُ ألعن الأيام التي جعلتني أسيرة للملجأ الذي مللت فيه الحياة فقد حفظت كل قطعة وكل شبر خلال عشرون عامًا.

غمرتني الفرحة وللمرة الأولى استقبلت نظرات الفتيان وابتساماتهم وبعض مغازلتهم، فكدت أطير من السعادة، وللمرة الأولى أيضًا أشعر بأنوثتي التي كم جهلتها داخل جدران الملجأ.

- أوقفني أحد الشباب يسألني: الجميل رايح فين؟
- مش عارفة؟
- ضحك الشاب العتي أكيد الجميل بيتقل علينا.
- بجد أنا مش عارفة أنا رايحه فين؟
- إيه رأيك نتمشى مع بعض شوية؟

لم اقاوم عرضه ووجدت نفسي أستجيب له دون أن أشعر حتى ساقني الشاب بلا إرادة أو مقاومة، ووجدت نفسي أجاريه دون اعتراض، فراح الشاب يسألني عن اسمي وموطني وعن حياتي، فجاوبته بكل صدق: وأنا لا أعرف كذب الحياة ومرارتها فأنا كالصفحة البيضاء التي لا تعرف سوى الصدق وأني أنثى شاردة الجماح.

اصطحبني الشاب العتي إلى أحد المطاعم التي لم تطأ قدماي إياها من قبل، فكل طعامي طوال سنوات مضت تناولته في بهو فسيح به طاولة كبيرة يصطف حولها من فقدوا أهلهم ليأكلوا ما أفاضت به الحياة عليهم مجبرين غير مخيرين، فكان جل همنا ينصبُّ حول الطعام لا حول ماهيته وصنفه، فنحمد الله أنه رزقنا ما نسد به جوعنا.

أحضر لنا النادل الدجاج المشوي برفقة بعض السلطات فتذوقت طعامًا لم أذقه من قبل فقلت ما أجمل طعام الدنيا؟! كيف يكون طعام الجنة الذي كان يرويه لنا بعض الدعاة .

ندمت على تأخري في الرحيل من سجني العتي – الملجأ – وقلت في نفسي يا جمال الحياة فما أطيب طعامها ومجلسها، فكنت آكل تارة وأشرد تارة وأنا لا أفكر إلا في الظفر بكل ما طاب لي في هذه الحياة .

انتهينا من طعامنا وخرجنا إلى أحد المقاهي القريبة من المطعم وجلسنا نتبادل الحديث، وكان أيمن شابًا عتيًا جميل الهيئة والخلقة تفوح منه رائحة العطر الذي كنت لا أشتمه إلا عند ولوج الضيوف إلى الملجأ .

حدثني أيمن عن حياته التي يعيشها وحيدًا منذ أن فقد أبويه في حادثة سير وقعت لهما في طريق عودتهما من رحلة سفرهما من الخارج فماتا ونجا هو، ليجد نفسه وحيدًا في شقة داخل أحد الأبراج السكنية التي طوقت المدينة.

شربنا عصيرنا الممزوج بقطع الأيس كريم فذاب فؤادي فيه كما تذوب حبات الثلج في الماء وأنا لا أصدق ما أنا فيه.

– مر الوقت سريعًا وبدأت علامات الليل في الظهور، فسألني أيمن إلى أين؟

– جاوبته بكل سذاجة، لا أعرف؟

– ظننت أنك تمزحين حين قلتي لي لا أعرف؟

– ولِما المزاح، فأنا صادقة، لا أعرف إلى أين أذهب؟

عرض الشيطان أن أصطحبه إلى مسكنه، فتوجست خيفة في بادىء الأمر، لكنه القدر الذي كتب وسجل ما أجهله، فلا حول ولا قوة لمن عاشت يتيمة.

قلت له: وكلام الناس، فقال لي: أنا لا أخشى الناس، ثم أن برجنا السكني كل واحد في حاله، فلِما الخوف؟!

- أنا خايفة يا أيمن أنت شاب وأنا بنت.

يا خايبة هو اللي عاش مرار الوحدة يتخاف منه، واحنا يتامى زي بعض. فانجذبت له، ولِما لا؟ فإن باب قلبي ما زال مغلقًا بعد أن عزف عنه المحبين .

استأذنني لإجراء مكالمة هاتفية، لم أعر لها اهتمام ولم أسمع فحواها لهمس حديثه، ولم تمر إلا دقائق حتى انطلقنا عبر سيارة تاكسي، وأنا أتابع البنيات الشاهقة في المدينة الواسعة وما زلت لا أصدق ما أرى .

مر بعض الوقت وصلنا لأحد الأبراج العاتية وكان برجًا متعدد الطوابق ينهك النظر لعلو ارتفاعه، وركبنا المصعد حتى وصلنا الطابق التاسع، فطلب مني أيمن الخروج فخرجت منه في اتجاه شقته .

فتح الباب، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها شقة سكنية وولجت من بابها وقد سرقني آثاثها وجدرانها المزينة بالألوان

المبهجة، دخلت وكان كل شيء في الشقة هادىء لا يبعث على أي ضوضاء سوى صوت بعض الموسيقى.

وصد أيمن الباب وأحكم غلقه، وطلب مني أن أستريح في إحدى الغرف التي اصطحبني إليها، ثم طلب مني أن أغتسل من آثار الأتربة، فدخلت الخلاء وأنا لا أصدق ما أرى بعد أن شممت روائح الصابون الفاخر والشامبوهات التي بعثت في النفس الراحة والسرور.

بعد انتهيت خرجت إلى سرير الغرفة الفسيحة، وكأني أعيش في حلم تمنيت ألا أفيق منه فجسدي راح يغوص في سرير كثيرٌ ما حلمت به.

لم تمر إلا دقائق ووجدت مجموعة من الشباب فاقدي الوعي يتناوبون على اغتصابي بقيادة أيمن وهم يهجمون على فريسة النيل منها يسير، فبطشوا بي وتناوبوا على اغتصابي ففقدت باب عفتي وكرامتي .

لم أفق من غيبوبة الاغتصاب إلا في إحدى المشافي بعد أن انتهكوا عرضي ومزقوا جسدي، فمن يغيثني ويرد لي كرامتي وشرفي الذي ضاع أثناء طغيان بعض الشباب الثائر ضد فقيرة لا تملك من حطام الدنيا إلا شرفها الذي ذهب هباءً .

لملمت ملابسي وترجلت خائفة من المجهول الذي ينتظرني وخرجت إلى حيث لا أدري، فسقطت وأنا أترجل من البرج الشاهق

حتى سقطتُ على الأرض ولم أفق إلا في إحدى المستشفيات الحكومية حاملة الخزي والعار الذي لحق بي.

ماذ أفعل يا أستاذ؟ وكيف أحصل على حقي الذي ضاع من كلاب ضالة افترستني بلا رحمة؟

هدأت من روع المسكينة، وسألتها عن محل إقامتها، فردت والدموع تتساقطت على وجنتيها قائلةً: عدت من حيث خرجت إلى ملجأ الأيتام بعد أن نلت قسطًا وفيرًا من الشتائم والسباب من مشرفة الملجأ عقابًا لي على خروجي من الملجأ.

هل سجلتِ محضر إثبات حالة في القسم؟

لا، لكن المستشفى أعدت لي تقرير طبي.

أتعرفين مكان البرج؟

نعم.

اصطحبت اليتيمة إلى المستشفى وحصلت على التقرير الطبي، ثم ذهبنا سويًا إلى قسم الشرطة، فكتب محضرًا بالواقعة فصّلت فيه الفتاة أوصاف المجرم الذي فتك بها، وأوصاف الوحدة السكنية في البرج الشاهق.

دونت كل أقوال الفتاة في محضر الشرطة، وطلب مني الضابط المناوب ترك رقم هاتفي للمتابعة معي بعد أن يقوم بإجراء

التحريات حول هذا الشاب بعدما فصّلت لهم المسكينة بالوصف الدقيق مكان إقامته.

مر أكثر من أسبوع ولم أتلقَ أي اتصال من قسم الشرطة، فأصابني القلق فعقدت العزم على الذهاب إليهم حتى أقتل القلق الذي تسلل إليّ.

دخلت قسم الشرطة وسألت عن الضابط الذي أعد المحضر فلم أجده، فتوجهت إلى مكتب رئيس المباحث الذي رحب بزيارتي إليه.

قصصت عليه ما حدث فكان الرجل على دراية بما قصصته عليه، فأفاض لي سرًا ونصحني بترك تلك القضية كون الشاب ينتمي إلى إحدى العائلات صاحبة النفوذ، وقد أكتشف رئيس المباحث ذلك عندما قام رجاله بالتحريات عنه.

سألته عن حال اليتيمة التي ضاع مستقبلها ومصيرها بعد الذي وقع لها، فهز الرجل رأسه في صمت ولسان حاله يقول ربنا على المفتري.

شكرت رئيس المباحث على صراحته ووعده بأن ما أفاض به سيكون في بئر أسراري فأنا لم أره ولم أسمع منه شيئًا.

أعتكفت في مكتبي لبضعة أيام والألم يؤرقني ورحت أغوص في غيابات القلق والتوتر الذي أصاب القلب بالعوار نتيجة بطش الزمان لمن لا يملك المال.

انشغلت في قضاياي الكثيرة وغفلت عنها لشهرين حتى عادت الفتاة تسألني وأنا لا أملك الإجابة التي تريح صدرها وتذهب همها، سكت وتعللت لها بانشغالي عنها بسبب أزمة مختلقة أرّقتني وشغلتني عنها.

هنا اتخذت القرار الأصعب في حياتي وقلت في نفسي لعل الله يقدم لي الدعم في هذه القضية ليعود للفتاة حقها الذي سلبها إياه شاب طائش لا دين ولا أخلاق له.

عكفت أيامًا بعدها حائرًا أجهل من أين أبدأ وكيف أبدأ؟ إلا أنني تذكرت أني تألمت وعانيت سنوات وسنوات لأني لم أجد من يقدّم لي يد العون، فكيف سيكون مصير تلك المسكينة وأنا أملك الدفاع عنها، ماذا سأقول لربي إذا سألني.. لماذا لم تعين هذه المسكينة التي استنجدت بك؟ بعد أن أغدقتُ عليك نعمي وفضلي!

هنا شعرت بالخزي واتخذت قرارًا من أصعب القرارات التي مرت عليّ في حياتي وهو الخوض في هذه القضية حتى وإن خسرت كل شيء.

منَّ الله عليّ بطاقةٍ من عنده دفعتني ولاحت في أفق أفكاري فكرة البحث منفردًا عن هذا الشاب بعيدًا عن تحريات الشرطة التي خشيت أن تقحم نفسها في هذه القضية الشائكة.

ذهبتُ إلى مكان البرج السكني باحثًا عن ورقة عائمة في فج عميق مستعين بحبل أفكاري وحيلي، وأنا على يقين أن الحيل لم تُجدِني، ولكني عزمت بيقين من الله أنه سيمدني بمدده كي أحصل على ما أريد.

سألت عن حارس البرج حتى وصلت إليه ووجدته يجلس في إحدى المقاهي المجاورة للبرج وحيدًا يدخن الشيشة بعد أن دلني عليه أحد السماسرة الذي ظن أني أبحث عن وحدة سكنية في البرج الشاهق.

قدمت نفسي إليه والرجل مشغول بالشد والسحب في أنفاس الشيشة بعمق، سألت عن الشقة بعد أن قررت أن تلك أولى خطواتي في القضية للقبض على المتهم ورفاقه.

توقف الرجل وبهت وجهه وقال: أيوه يا متر دي شقة واحد من البشوات واخدها للمزاج وده رجل واصل فوق، وأنا معايا عيال عايز أربيها يا باشا فبالله عليك خليني في حالي أنا رجل فقير ومش حمل الناس دي.

أنا مش عايز منك غير شوية معلومات وفي الآخر أنا لا شفتك ولا أعرفك، ومتقلقش أنا هبسطك.

هتبسطني وتحلفلي على المصحف إنك مش هتذكر اسمي ولو واجهوني هقول: لا شفتك ولا أعرفك، لو اتفقنا على كده أمين، متفقناش كل واحد يروح لحاله وأنا لا شفتك ولا أعرفك.

- تمام يا ريس خد حتة بمائة جنية عربون محبة.
- لا لا متنفعش خالص يا أستاذ، الكبير ليه الكبير اللي زيه ولا إيه؟
- عايز كام يا عمي الفقير.
- أستك مقفول.
- بس ده كتير.
- مش كتير على اللي هقلهولك يا باشا.
- اتفقنا يا عمي الفقير.
- عايز تعرف إيه يا باشا.
- عايز اعرف كل حاجة عن الواد الصايع صاحب الشقة.

أخذ حارس البرج يسرد حكايته لي: شوف يا سيدي هو عيّل صايع وأبوه ضابط كبير ومن العائلات الكبيرة في البلد وواخد الشقة دي للمزاج، وطبعًا مفيش حد من الجيران عارف يفتح فمه معاه لأنهم عارفين آخرتها إيه فمتتعبش نفسك مفيش حد هيتكلم.

هو نسونجي وكل يوم والتاني مع واحدة شكل، فيهم المستويات العالية وفيهم لا مؤاخذة البلدي خالص، وكل يوم وحظه، وفين وفين لما يفصل كام يوم ولا أسبوع بالكتير بعدها بترجع ريمة لعادتها القديمة، ومعاه شلة بايظة فيها الغني والفقير ومن ضمنهم عيل صايع شغال ميكانيكي فاتح في آخر الشارع هنا.

طبعًا يا باشا أنتَ مش هتقدر عليه عشان كده بنصحك تخلع بدري بدري عشان مترحش في داهية لأن الواد داه مفتري وعلاقاته زي الرز.

- ده كل اللي تعرفه عنه، يعني تعرف أسماء العيال صحابه.
- طبعًا يا باشا، بس كله بحسابه.
- أنا قلتلك المائة جنية عربون محبة.
- لا ألف يا باشا مش مائة.
- ألف يا سيدي، بس أنا حاسس أنك مش على بعضك.
- ما أنت عارف الحتة هنا كله في وش بعض وبصراحة قعدتك طولت وأنا قلقان.
- ماشي يا عمي فوزي أنا هاخد رقم تليفونك ونتقابل مرة تانية في أي حتة تعجبك بعيد عن الوش اللي هنا.
- إتفقنا يا باشا خد الرقم ولما تكون فاضي اديني ساعة وأكون قدامك وياريت يا باشا تكون بعد العشاء عشان الليل ستّار.

تركت الحارس بعد أن دوّنت مسامعي ما أفاض به إليّ وإن لم يغب عن فكري تحذيرات رئيس المباحث التي وضعتها بعين الاعتبار.

كانت هذه القضية شغلي الشاغل الذي استحوذ على تفكيري خلال هذه الفترة، ومن كثرة انشغالي بها كانت تتوارد إليّ الأفكار كالسيل العرم حتى أنها أحدثت فوضى في فكري وعقلي، وكان

لزامًا عليّ فك هذا الاشباك كي أنظّم الأفكار المتشعبة لأجمع شتاتها في فكرة واحدة.

وبعد تفكير عميق أفاض الله عليّ بفكرة جيدة ألا وهي البدء برفقائه، ومن ثم الدفع باسمه في سيل القضية حتى لا أبدأ بها كي لا تفشل محاولاتي قبل أن أبدأ، وقد استقرت هذه الفكرة بعد أن اطمأنيت لها.

كانت أولى الخطوات هي جمع كل المعلومات عن شلة الأنس والفرفشة، فتعددت لقاءاتي بحارس العقار الذي استنزفني ماديًا، لكنه أفاض عليّ بكم جم من المعلومات تعجز أي أجهزة استخبارات في العالم على جمعها لكنه توفيق الله.

هاتفت فاطمة وطلبت منها الحضور إلى مكتبي لأرسم معها خطوات البدء في سير القضية التي دعوت الله أن ينصرني فيها لتأخذ الضعيفة حقها ممن هتك عرضها.

جاءت الفتاة واستمعت إليها بعد أن طلبت منها أن تقص على مسامعي مرة أخرى ما وقع وحدث حتى لا تغيب عني قصاصة حبل من حبال القضية الشائكة.

في اليوم التالي اصطحبت الفتاة إلى قسم الشرطة وشرحت لرئيس المباحث خطة السير في القضية والتي سأبدأها بالسعي خلف

ميكانيكي السيارات، كونه الحلقة الأضعف في شلة الأنس القوية النفوذ، فالميكانيكي هو من يجلب المزاج والكيف للشلة.

قدمت لرئيس المباحث بعض المعلومات عن الميكانيكي ومحل عمله وإقامته وبعض أسماء تجار المخدرات الذين يجلبون منهم الكيف، وكان تحرك المباحث سريعًا بعد أن وفرت لهم كل المعلومات التي يحتاجونها.

تم القبض على الميكانيكي ويدعى رمضان قبصة وبمواجهته بالمجني عليها الذي أنكر معرفته بها، إلا أن أوصافه التي تطابقت مع الأوصاف التي أدلت بها، فكنا نعرفه قبل أن نراه أمام أعيننا.

طلبت من رئيس المباحث أن يحوّل الأمر إلى النيابة العامة كي تباشر عملها رغبة مني في دفع الحرج عنه، وهربًا من نفوذ شلة الأنس للضغط على الشرطة لإغلاق القضية.

حوّلت الشرطة القضية للعرض على النيابة، وقبل العرض استأذنت في الدخول على رئيس النيابة الذي أذِن لي فشرحت له كل الملابسات، ثم طلبت منه الوقوف معي ضد هؤلاء المجرمين أصحاب النفوذ.

تعاطف رئيس النيابة بعد أن أججت الصراع الخفي بينهم وبين رجال الشرطة الذين يتلاعب بعضهم بأحلام بعض البسطاء تحت

سطوة القوة والنفوذ، فـأخذ الأمر على عاتقه وطلب مني التواصل معه في أي وقت إذا استجد في الأمر شيء كي يقدم لي العون.

استدعى رئيس النيابة رمضان قبصة الميكانيكي الذي أصر على إنكاره بمعرفتها، فطلبت منه مواجهته بالمجني عليها التي واجهته بكل قوة وثبات فبدا على وجهه الارتباك حتى أجهزت عليه بكم المعلومات التي ألقيتها عليه فزاد ارتباكه وبدا ضعفه وقلة حيلته حتى اعترف بجرمه وفعلته، بعد أن قيضته بسلاسل المعلومات التي قيدته وشلت حركته.

ولم يكن بالسهل أن يعترف رمضان بجرمه لولا ذكاء رئيس النيابة الذي استطاع بدهائه وأسئلته أن يسقطه في دائرة الاعتراف الذي انتزعه منه بالتهديد تارة وبالترهيب تارة أخرى.

سعدت بهذه الخطوة وإن لم تكن هي الأصعب لكنها كانت البداية في طريق طويل من الأشواك والعقبات والصعوبات الله وحده الأعلم إلى أين سينتهي بي الحال.

لم أجنِ من هذه القضية إلا الصعوبات لكن دافعي لنصرة المظلوم كان السبيل الذي أعانني للاستمرار فيها لأني احتسبت أجرها عند ربي الذي لا يضيع أجر المحسنيين.

عاد رمضان إلى محبسه بقسم الشرطة بأمر من النيابة العامة المحصنة من بعض نفوذ الكبار، واستمرت الشرطة في البحث عن

باقي شلة الأنس بأمر النيابة، حتى استدرجت الشرطة الواحد تلو الآخر بعد أن تشعبت القضية لتشمل بعض تجار المخدرات وأبناء أصحاب النفوذ، وكنت في كل خطوة أتلقى التهديد تلو الآخر من تجار المخدرات لعدم الزج بأسمائهم في هذه القضية المتشابكة.

لم يكن جُل همي تجار المخدرات ولا الميكانيكي ولكن كان ما يشغلني ابن صاحب النفوذ الكبير الذي جاء اسمه متأخرًا حسب ما خططت له في السير في القضية، ليكون مجيئه سقطة من سقطات أصدقائه في شلة الأنس لكي أكون في منأى من مواجهته في بداية القضية.

تحولت القضية إلى الجنايات وقدمت مستنداتي المدعمة بكم هائل من المعلومات أدهشت المحكمة فلو كنت أعيش معهم ما تحدثت مثل ما ذكرت في مذكرة القضية.

أجّلت المحكمة القضية بطلب من هيئة الدفاع عن الخصوم والذين كان من بينهم ابن الجيران الذي أبغضه هاني، وقد شاء القدر أن تأخذ القضية شهورًا منظورة أمام ساحة المحاكم لأجازة القضاء التي يحصلون عليها كل عام، فمثلت الأجازة فسحة كبيرة لمحامي الخصم أن يمارس ضغوطه للتصالح في القضية والتي بدأت في الضغط على الفتاة التي رفضت رغم الإغراءات المالية التي قُدمتْ لها، فجاء الدور على من يدافع عنها.

البداية طلب مني هاني أن أرافقه إلى مكتب المحامي الكبير الأستاذ ماهر في وسط البلد لرغبة الأستاذ الكبير في الجلوس معي.

لبّيت الدعوة وذهبت برفقة هاني إلى مكتبه الفسيح في وسط البلد وإن كنت توجست خيفة من هذا الرجل المشهور بألاعيبه وسوء سمعته، لكني استعنت بالله وأنا أردد قوله تعالى « وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد».

ولجت إلى المكتب وكان في استقبالي وما أن رآني حتى ألقى عليّ عبارات المديح الممزوجة بالابتسمات الصفراء التي لا تريحني، لكني كنت أعرفه جيدًا من خلال قصص الزملاء من المحامين عنه، وكنت أعلم أني في وكر ثعبان لئيم فلم تفلح عباراته في تغيير صفاته والفكرة التي دونتها عنه قبل المجيء إليه.

طلبت منه الدخول في الموضوع بعد أن طال المقال في الوصف والشكر، فابتسم الرجل ابتسامة اللئيم وقال: تشرب إيه يا أستاذ محمود ليمون ولا حاجة صاقعة؟

طلبت منه فنجان من القهوة لأكون متيقظًا حتى لا يسقطني بين مخالبه عندما يدلي بدلوه فقال الرجل اللئيم: أنت عارف يا متر أني أنا محامي الأستاذ أيمن، وأيمن ده ابن ضابط كبير في الداخلية وإحنا يا متر زي ما أنت عارف مش قد ولاد الناس الكبار.

- والمطلوب يا أستاذنا؟

حلو الكلام، شوف يا متر أن البنت تاخد قرشين وأنت تاخد أتعابك اللي أنت تحددها ويا سيدي الواد الميكانيكي هيعترف بكل حاجة وهيشيل القضية لوحده ولو عايزه يكتب على البنت ويجوزها مفيش مانع.

يعني يا متر، أيمن بيه يضيّع مستقبل البنت ويبهدلها معاه والمفروض كل نقابة المحامين تنتفض للدفاع عنها نسكت عشان المجرم ابن ناس وهي يتيمة، لا والله!

استهدى بالله يا متر ومتقفلش الدنيا من أولها، ما احنا قلنا هنعوض الجميع والبنت هتاخد حقها.

حقها من مين؟ من الميكانيكي، ومين اللي جابها وعمل عليها حفلة؟ الميكانيكي ولا أيمن بيه!

ماهو يا سيدي الولد غلط وهيدفع ثمن غلطته وكفاية البهدلة اللي اتبهدلها هو وأبوه.

وأنا أروح من ربنا فين لو سألني سبت حقها ليه؟

إن الله غفور رحيم يا سيدي ولو ضميرك مأنبك نوديك عمرة ولا حج على حسابنا وكده تبقى اتحلت ولا أنا هتكون أرحم من ربنا علينا.

أنا مش ربنا ولا أنا صاحب القضية أنا مجرد محامي عن واحدة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، ولعلمك يا أستاذنا أنا مش هاخد ولا مليم من القضية دي، أنا بدافع عنها لوجه الله.

ما عشان كده أنا قلت في البداية هندفع الأتعاب اللي أنت تطلبها عشان متطلعش من المولد بلا حمص وتطلعلك بقرشين حلوين.

بعتذر يا أستاذ مش هقدر أتنازل أنا متربتش على الخنوع ولا على الانكسار لحد.

معاذ الله، ومين يقبل أنك تخنع لحد يا متر! هو أنت متخيل أني ممكن أسمح بكده لا والله، أنت زي ابني وزميل ليك قدرك واحترامك ونجاحاتك يشهد بيها الجميع في كل المحاكم، وأنا عندي اقتراح حلو خالص أنت تاخد وقتك تفكر وتعقلها كده وبعدين ترد عليّ، وأهوه معاك الأستاذ هاني لو وصلت لأي حاجة بلغه وأنا مكتبي مفتوح ليك في أي وقت.

شكرًا يا أستاذنا، بارك الله فيك وإذا سمحت لي أستأذنك عشان مضيعش وقتك.

لا أبدًا يا حبيبي أنا والله فرحان أني اتعرفت عليك وقابلتك وكان نفسي أشوف الشاب الذي تفوق على أساتذته، على فكرة الأستاذ خالد مولع منك بعد ما سيطك انتشر.

الأستاذ خالد ده أستاذي وهو صاحب الفضل اللي أنا فيه، وأنا أدين لكل من علمني حرف.

والله يا أستاذ محمود، أنت إنسان متربي ونعمة التربية يا ابني، سلمك الله وفي انتظارك.

انتهي اللقاء وعلمت أن الأمور بدأت في التعقيد، فلو تنازلت فاطمة عن القضية سأخسر أكثر مما سأكسب، لكن إن مرت الأمور بسلام سأكسب كثيرًا أولها حق المسكينة، وإن كنت لم أطمئن لسير الأحداث التي كنت أتوقع صعوبتها عندما قررت الاستمرار في هذه القضية.

عرضت الأمر على صاحبة الأمر حتى يرتاح ضميري فربما قبلت ما عرضه عليّ المحامي الكبير، لكنها أبت ورفضت، ثم انهمرت في سيل من البكاء وقالت جملتها التي زلزلت أركان فؤادي «لو أنا بنت واحد من الكبار كان قدر يعمل معايا كده، هو أنا رخيصة لدرجة أن كل اللي حصل فيّ يداوى بقرشين» أنا والله عايشة في عذاب يا أستاذ محمود، أنا في كل ليلة بتمنى فيها الموت عشان ارتاح من العذاب اللي أنا شفته من يوم ما جيت على وش الدنيا اللي مشفتش فيها يوم حلو كله إهانة وذل وانكسار، وده كله ليه عشان يتيمة ومليش أهل؟

كلنا يتامى يا فاطمة، أنا حبيت أعرض عليكي اللي حصل من باب الأمانة، لكن أنا مش عايز أتنازل ولا حابب أنك تتنازلي، لازم

تعرفي يا فاطمة أنا هتعرض لضغوط كبيرة وممكن أخسر حاجات كتير يعني لو أنتِ اتنازلتي أنا هروح فيها لازم تحطي الكلام داه حلقة في ودانك.

أنا عمري ما أبيعك يا أستاذ ولو بملايين الدنيا.

الكلام حلو يا فاطمة لكن لازم تعرفي الكلام ده لو سحبتي نفسك في أي وقت أنا هضيع يا فاطمة وهخسر مستقبلي كله.

عمري يا أستاذ لو حتى قطعوا رقبتي عمري ما هبيعك ولو ادوني كنوز الدنيا.

تمام كده هتتابعي معايا ولو أي حد اتصل بيكي أو كلمك تبلغيني فورًا فاهمة يا فاطمة، لأن أكيد هيتصلوا بيكي الفترة اللي جاية وهيضغطوا عليكي فوق ما تتخيلي، فمتنسيش لو حد فينا باع التاني هنخسر إحنا الاتنين.

عارفة وفاهمة يا أستاذ.

تمام أتوكلي على الله شوفي مصالحك وتكلميني لو أي حد اتصل بيكي.

انتهى لقائي بفاطمة وما أن انصرفت حتى جاءني اتصال من رقم مميز تشابهت أرقامه مع بعضها البعض فأدركت أنه من أحد الكبار الذين يملكون مثل هذه الأرقام، جاوبته بعد أن تسلل القلق إليّ.

- ألو، السلام عليكم.
- الأستاذ محمود المحامي.
- مع حضرتك يا افندم.
- يا أهلًا وسهلًا يا متر، معاك اللواء عبد الباقي.
- أهلًا وسهلًا بحضرتك.
- أنا كنت عايز أقابلك يا متر في موضوع كده مش هينفع على التليفون.
- خير حضرتك بخصوص إيه؟!
- لما نتقابل يا متر، تحب نتقابل في مكتبي.
- أفضل لو في مكان عام يكون أحسن.
- تمام هنتظرك بكرة الساعة 6 بنادي تجديف الشرطة.
- بإذن الله على الموعد.
- أول ما تدخل على البوابة عرفهم بنفسك، وهيدخلوك على طول وهكون في انتظارك.
- بإذن الله.

قرأت ما ينوى الرجل الحديث فيه، فهو أب لابن ضال أراد أن يجمع شتاته وينجيه مما وقع فيه، فتوقعت أن يكون حديثه لينًا،

وانتظرت حتى جاء موعد اللقاء، وعرّفت أفراد الأمن بالبوابة باسمي فرحب بي أحدهم مهللًا مرحبًا، وخرج الآخر من من بوابة الدخول بسرعة وخفة واصطحبني حيث يجلس سعادة اللواء على أحد الطاولات في العوامة التي تطالع النهر.

رحَّب بي اللواء عبد الباقي وطلب مني الجلوس وطلب من فرد الأمن إحضار النادل الذي هرع إلينا بعد إشارة اللواء وعرض عليّ ما أريد شربه من بعض العصائر الطازجة والمشروبات الساخنة، فطلبت فنجان من القهوة واكتفى اللواء بشرب الماء.

- أنتَ عارف يا متر طبعًا أنا عايزك ليه؟
- لا طبعًا أنا معنديش فكرة.
- أنا يا سيدي اللواء عبد الباقي والد أيمن.
- أهلًا وسهلًا بحضرتك.

من غير لف ولا دوران عشان أنا مش فاضي أضيّع وقتي، أنا عايزك تسحب نفسك من القضية بتاعة البنت الشحاتة اللي رفعاها على ابني، أنتَ عارف احنا مستحيل ننزل للمستوى ده، وأنا كلمت الأستاذ ماهر يدي البنت قرشين وكده الموضوع يبقى خلص.

الموضوع يا باشا مش قرشين والسلام، احنا قدام جريمة فيها هتك عرض واغتصاب.

سيبك من الكلام الكبير ده يا متر وخلينا نخلّص لأني أنا معنديش وقت أضيعه في المرافعات أنا بحمل مسئولية أمن البلد وكل ساعة بتعدي البلد أولى بيها.

وأنا والله يا سعادة اللواء ربنا يعلم أنا فضيت نفسي بالعافية عشان أقابلك النهاردة، وعشان مضيعش وقت سعادتك مش هينفع الكلام اللي أنتَ بتقوله، والسلام عليكم، عشان وقت حضرتك.

غضب الرجل الذي لم أعر له اهتمام وشعر بالحرج الشديد بعد أن صفعت كبرياءه بعدم اهتمامي بما قال، فلم تعجبني طريقته في الحوار التي بدا فيها متغطرسًا، وانصرفت وإن كان القلق لم يفارقني خشية بطش هذا المسئول الكبير.

تلقيت اتصالًا عقب خروجي من زميل الدراسة السمج الذي طلب لقائي في إحدى المقاهي القريبة من مكتبي، فتوجهت إليه بعد أن خرجت من نادي تجديف الشرطة.

أنت مجنون يا محمود ولا تكون فاكر نفسك محامي كبير في البلد، فوق يا حبيبي لنفسك ومتنساش أنت مين وابن مين عشان تكلم سيادة اللواء بغطرسة.

احترم نفسك يا هاني وخلي بالك من كلامك.

يا أخي أنا بفوّقك من الحماقة اللي أنتَ فيها، هتاخد إيه يا غبي من عنادك مع الناس الكبار وهتاخد إيه من بنت زبالة هي اللي عملت في نفسها كده، فوق يا محمود محدش هيحميك من بطش الناس الكبار، واوعى تفتكر أن حد هيحميك منهم، ممكن يلفقولك تهمة أو رصاصة من عيل بلطجي وكده تروح في شربة مايه ولا حد هيحس بيك ويبقى كلب وراح.

أنا مش كلب يا هاني وأنتَ عارف ده كويس، عارف يا هاني الفرق بيني وبينك إيه؟

- إيه يا سيدي؟
- إني أنا لقيت أب يربيني ويعلمني يعني إيه حلال وحرام.
- يعني أنا مش متربي، أنتَ فاكر نفسك مين؟
- أنا محمود أشهر محامي شاب في تاريخ المحاكم.
- هو ده القلم اللي أخدته في نفسك ولازم تفوق منه كفاية كده، أنتَ ولا حاجة يا حبيبي مش علشان كسبتلك كام قضية وسمعت شوية تفتكر نفسك حاجة، أنتَ ولا حاجة.
- أنتَ عايز إيه يا هاني؟
- عايزك تفوق لنفسك من القلم اللي واخده في نفسك.

- أنا يا سيدي ولا حاجة ومليش لازمة في الحياة، كده ارتحت ومش هتنازل عن القضية دي لو اطبقت السماء على الأرض.

- ماشي يا محمود ابقى استحمل وداه آخر كلامي معاك، استحمل اللي هيجرالك وياريت تبقى رجل وتكمل ومترجعش تعيط في الآخر.

- أنا رجل وابن رجل ومتخلقش اللي يخليني أعيط.

- هنشوف يا محمود بكرة نشوف ونسمع رجولتك هتوديك لغاية فين.

انصرف هاني الحقود بعد أن رفع درجات غضبي وإن زادت كلاماته البغيضة من عزمي على استكمال القضية وإن خسرت كل شيء.

مر أسبوع على لقائي بهاني وكان شديد الهدوء وكنت خائف أترقب من هذا الهدوء الذي قد يسبق العاصفة خاصة بعد اقتراب موعد الجلسة وعودة القضاء لعملهم بعد فترة أجازة طويلة لجميع أرجاء المحاكم، وأثناء خروجي من مكتبي بعد أن انتهيت من بعض أعمالي، وأثناء سيري مترجلًا من المكتب إلى البيت واجهني شاب ملثم استوقفني عنوة وطعنني في بطني وفر هاربًا.

سقطت على الأرض أصرخ من آلم الطعنة وغصت في غيبوبة بعد أن لطخت الدماء يدي وجسدي لم أفق منها إلا بعد أيام، تفتحت عيناي حينها لأرى أمي وإخوتي يطوقون سريري في المشفى وأنا لا

أدري كيف أتيت إلى هذا المكان، لكني حمدتُ الله أني عدت إلى الحياة وإن لم أتعافَ بعد من أثار الطعنة التي أوشكت أن تقضي على حياتي وتحرمني من حق الحياة الذي وهبني الله إياه.

جاء موعد القضية فطلبت من أحد زملائي المحامين تأجيل القضية حتى أسترد عافيتي وأستجمع قواي التي أنهكت جراء هذه الطعنة الغادرة التي تلقيتها على يد بلطجي مدفوع من أحد الكبار الذي لا يعتبر فيه من يومٍ تشخصُ فيه الأبصار.

انشغلت بعد خروجي من المشفى بزيارات زملائي المحامين وبعض الموكلين الذين جاءوا ليطمئنوا عليّ بعد عودتي بسلامة الله إلى عملي مرة أخرى.

أيقنت أن الطعنة الغادرة ما هي إلا أحد السبل لإيقاف مسيرة استمراري في القضية الشائكة، وما زادتني الطعنة إلا إصرارًا على استكمال ما بدأته، فماذا سيكون بعد الموت الذي بادر به هؤلاء الجبناء للقضاء عليّ لكنها كانت البداية ولم تكن النهاية.

وقفت أمام هيئة المحكمة وقد رويت لهم ما وقع لي دون تقديم دليل الإدانة ضد من قيدته الشرطة ضد مجهول لعدم الإمساك بالبلطجي المدفوع من الكبار.

ضلل المحامي الشهير المحكمة باعتراف رمضان الميكانيكي بأنه وحده من استدرج الفتاة ونال منها، ولكني تمسكت بالدفع

بباقي المتهمين لينال القضاء منهم، وأشرت في دفاعي إلى سطوة أبناء الكبار في تفشي الفساد في المجتمع الذي اتخذ القضاء ملاذًا من بطشهم بالفقراء الذين لا يملكون قوة الحياة.

حكمت المحكمة بتأجيل القضية بعد أن تشعبت أركانها وكبرت وتحولت إلى قضية رأي عام تناولتها الصحف ووسائل التواصل الإجتماعي وانتشرت الهتشاج وراء الأخر يطالب بإعدام أيمن ابن أحد أصحاب النفوذ مدافعًا عن حق فاطمة اليتيمة.

حققت وسائل التواصل ضغطًا كبيرًا على هيئة المحكمة حماني من بطش الجبابرة الكبار، وحمى المسكينة اليتيمة بعد أن أمرت هيئة المحكمة بوضع حراسة خاصة على ملجأ اليتامي الذي تسكن فيه فاطمة.

زاع سيطي وانتشر في أرجاء البلاد بعد هذه الجلسة مما زاد من ملفات القضايا في مكتبي المتواضع بعد أن علم الجميع أن تعرضي للقتل بسبب دفاعي عن فاطمة التي تحولت قضيتها لقضية رأي عام.

أصبحت حديث المدينة التي لا تنام بعد أن تعددت لقاءاتي المتلفزة مع أكثر من برنامج صوتي ومرئي تحدثت فيه عن ملابسات القضية والضغوط التي تعرضت لها من أجل التنازل عن قضية فاطمة، وكانت فاطمة ضيفة تلازمني في معظم لقاءاتي، فاستجلبت دموعها آلاف الاتصالات التي عبّرت عن دعمها لفاطمة في مواجهة

أبناء الكبار، وتلقيت الدعم من محامين كبار ووزراء سابقين ومثقفين وإعلاميين عبّروا عن مساندتهم ودعمهم لقضية فاطمة.

حمتني وسائل التواصل الاجتماعي من بطش الجبابرة الكبار لكن لم يدُم هذا الأمر طويلًا بعد أن ظهر ما ظننت أن الأيام دفنت ما كنت أخفيه لسنوات أرقتني وكادت أن تقضي على مستقبلي وأملي في الحياة.

بدأت الحرب القذرة التي شنها الأوغاد الذين لا يخشون رب العباد وتسللت للمواقع التي ناصرتني فيديو إباحي نسبه الأوغاد لي.

لم أعر أي اهتمام لما نشروا وسجلوا ظنًا مني أن ما نشر فيدو مُلفق لي، لم أرتاد يومًا بيت من بيوت الدعارة ولم تكن لي علاقة بامرأة قط طيلة حياتي منذ نشأت، فلِما الخوف من شيء لم أفعله، وكانت الطامة الكبرى أن الفيدو المنشور لم يكن لعلاقة لي بامرأة بل كان علاقة شاذة تجمع بيني وبين رجل.

لم أصدق ما سمعت إلا بعد أن عرض عليّ أحد الأصدقاء الفيديو المنشور، علا على السطح ما كنت أظن أن الأيام أخفته ودفنته في قبور النسيان.

ظهر ما كان يؤلمني ليعود بقوة ليقطع أوصالي من جديد وعاد ما خشيت من ظهوره، ظهر مرة أخرى ليفتح جرح قديم كاد أن يلتئم

لكنه فتح بغزارة، فعاد عمقه أكبر أثرًا من ذي قبل خاصة بعد أن ضربت الشهرة حياتي، فكنت نجمًا لامعًا تطارده الصحافة والبرامج المتلفزة ومواقع التواصل الاجتماعي فأصبحت نجمها شهيرًا وإن اختلفت نظراتهم.

لم يستمر الأمر طويلًا وتحولت الشهرة لنقمة بعد أن انتشر فيديو إباحي لي على أحد مواقع التواصل الاجتماعي، فقتلني المجتمع بنظرته المتدنية في ذنبٍ لم يكن لي يد فيه، فأنا ضحية مثلي مثل الآخرين، لكن الناس لا ترحم.

هاجمني الجميع وابتعد عن رفقتي المقربين، وعدت كما بدأت لأيام الطفولة وحيدًا أتمنى الموت أن يخفيني عن الحياة التي قست عليّ وضربت بي بعنف بعد أن عصفت بي الأيام التي لم ترحم ضعف قوتي وقلة حيلتي.

تخلّي عني الجميع إلا أقرب المقربين وبعض الموكلين الذين ساعدتهم في الخروج من محنتهم وقد علموا ما ألم بي من خلال الصحف والبرامج المتلفزة، فجاءوا يقدمون يد العون والمساعدة لي بكل ما يملكون، وهذا ما خفف قليلًا من معاناتي بعد أن وقف هؤلاء القلة معي في وقت كنت في أمس الحاجة فيه للقريب والبعيد ليقف بجانبي، وتحدث المعجزة التي حدثت ليوسف عليه السلام أيام

الطفولة، ويظهر لي جبريل كما ظهر ليوسف عليه السلام ليطمئنه في البئر الذي أسقطه إخوته فيه ليعود مرة أخرى للحياة بعد أن أصابه اليأس.

وظهر جبريلي الذي أنقذني مرة أخرى من حالة اليأس التي كادت أن تعصف بحياتي وقد طلب مني المواجهة ليدفعني مرة أخرى إلى خضم الحياة التي كدت أن أهلك فيها بظلم العباد.

لم استجب لدعوات خالي حسن بسهولة لكنها كانت توسلات أمي ودموعها التي طلبت مني الدفاع عن شرف الأسرة الذي سقط في الوحل، وكذلك خالي وبعض المقربين والموكلين القليلين الذين قذفوني من حياة اليأس إلى المواجهة دون أن أدري إلى أين؟

بعد عدة محاولات وبعد الاستعانة بالله قررت أن أعود مرة أخرى للحياة للدفاع عن شرفي وسمعتي، وقررت الوقوف في وجه الجميع للثأر ممن لطخوا سمعتي بكل قذورات الحياة.

أول ما بدأت به هو رؤية الفيديو الذي انتشر على المواقع الاجتماعية كانتشار النار في الهشيم ورحت أكرر رؤيته مرات ومرات رغم مرارة ما وقع لي في سن الطفولة.

حفظت ما رأيت وعدت أسترجع ما حدث متحملًا ما لي طاقة به لكنها كانت بالنسبة لي معركة كرامة أردت فيها الدفاع عن نفسي أمام الجميع لأحصل على حقي الذي لم أقدر حينها الدفاع عن نفسي

للثأر به، وقد أقنعت نفسي أن الفرصة قد حانت لأسترد كرامتى وأظفر بحقي الذي ضيعته الأيام.

كان شغلي الشاغل حينها البحث عن شيئين أولهما مَن نشر الفيديو على مواقع التواصل؟ ومن قام بتصويره؟ وإن كانتا خطوتين غاية في الصعوبة لأنهما مُزِجا بألم لا يعلمه إلا كل مظلوم نال فيه الأوغاد من عرضه دون ذنب اقترفه.

ولكي أحقق الخطوة الأولى كان عليّ أن أرى الفيديو لحظة بلحظة حتى استدل من خلاله على من قام بتصويري، فلو عرفت المصور سيكون من السهل معرفة من نشره لأنه من قام بتصويري له علاقة بنشره، ربما لحاجة في نفسه، وربما باعه لهؤلاء الأوغاد مقابل المال، وهذا ما عكفت عليه.

راجعت أحداث الفيديو ولكن هذه المرة بنظرة مختلفة عما ذي قبل فقد راجعت أحداثه مدققًا النظر في المكان الذي وقع فيه الحدث الجلل في حياتي، وبينما أتابع الفيدو ثانية بثانية أعيد وأزيد فيه ظهر لي حامل تكييف كان بجوار المصور ظهر في لمحة لم تستغرق جزء من الثانية، فوثبت من مكاني إلى مقر الحادثة القديمة أطالع النوافذ التي تطل على الممر، فعرفت لمن تكون النافذة وصمتُّ صمتَ القبور أنتظر موعد الجلسة الحاسمة لأدافع فيها عن نفسي وعرضي الذي أنتُهك.

جاء موعد الجلسة وأكتظت أسـوار المحكمة بالمصورين والصحفيين الذين توقعوا هروبي لكن حضوري فاجأ الجميع ولم يصدِّق أحد رؤيتي مرة أخرى، فظن خصومي أن الأمر حُسم لهم وأني اختفيت للأبد بعد أن قضوا عليّ.

تجمّع حولي الإعلام ليقتصوا مني حديثًا أبيّن فيه سبب اختفائي عن الجميع وعن سبب عودتي مرة أخرى في هذه القضية الشائكة لكني التزمت الصمت.

بدأت جلسة المحاكمة وبدأ الأستاذ ماهر بطلب من المحكمة عدم الأخذ بمرافعتي أو شهادتي في القضية كوني من الشواذ الذين يبغضهم المجتمع حتى أنه تقدم بطلب عرضه على هيئة المحكمة يطلب فيه من نقابة المحامين شطبي كوني عار على النقابة أن يكون من بينهم شاذ.

أخذ الجلاد يضربني ويضربني بصوت الأم دون أن يبالي بي، فكان يسدد لي الطعنات الواحدة تلو الأخرى دون رأفة أو رحمة، فمزقني إربًا سلخًا وجلدًا، فكان ينزع جلدي من جسدي في كل كلمة يتفوه بها أثناء حديثه أمام المحكمة.

انتهى المحامي ماهر، الماهر في اللدغ كالثعبان وقد نسف كل شيء بعد أن كشف ما سترته الأيام بإذن من العلي الستار، فكانت مرافعته مرتكزة على هتك عرضي.

القاضي: محامي مقدم الدعوى هل لديك أي أقوال؟

نعم سيدي الرئيس، فلتأذن لي هيئة المحكمة الموقرة بالحديث وإن تشفع لي أن أطلت في مرافعتي ردًا وتفنيدًا لِما طرحه الأستاذ ماهر الماهر في قلب الحقائق إلى باطل، والباطل إلى حقائق متجردًا من القيم الإنسانية التي فطرنا الله عليها، والتي كانت دستورًا يستمد منه المشرعون قوانينهم للمساواة وإقامة العدل بين الناس.

بدأ الأستاذ ماهر بكشف ما سترته الأيام، فلن أخفي عن هيئة المحكمة صحة ما طرحه الأستاذ ماهر من حقيقة الفيديو الإباحي المنتشر على وسائل التواصل الإجتماعي، فهذا الفيديو صحيح.

عجت قاعة المحكمة بالتشويش بعد أذهلتُ الجميع بصراحتي المطلقة أمامهم، وأني لم أخف ما طرحه الأستاذ ماهر بل أكدت ما سرده، فطلب رئيس المحكمة من الحضور السكوت.

نعم سيدي الرئيس أنا صاحب الفيديو الإباحي المنتشر على مواقع التواصل، وسأقص على عدالة المحكمة ما وقع بالتفصيل حيث كنت كأي طفل صغير ألهو وألعب مع أصحابي في مدخل العمارة التي كنت أقطن بها، وأثناء اللعب تاهت الكرة وسط الآثاث القديم في غرفة التهوية.

بدافع الطفولة ذهبت لإرجاع الكرة فاتبعني أحد أطفال الجيران والذي كان في سن المراهقة وتحرش بي لكني قاومته بكل ما أملك من قوة طفل لم يتجاوز عمره السابعة من عمره، لكن قوتي لم تقدر على مقاومة هذا المراهق الذي بطش بي فاغتصبني بلا شفقة ولا رحمة، نعم هتك المراهق عرضي عنوة ولم تشفع توسلاتي ولا صرخاتي في إرجاعه عما قام به.

عشت ذليلًا أخشى الظلام والحركة والخروج والدخول والذهاب إلى المدرسة حتى الناس كنت أخاف رؤيتهم، تحملت فوق طاقة البشر، لم يكن لي أخ ولا أب يدافع عني، فلم أعرف إلى أين أذهب حينها؟ ولمن ألجأ! ففكر الطفولة لم يتعدَ حاجز غرفة صغيرة لأنه فكر محدود، لكني صمتُّ وتحملت ما لا طاقة لي به، وكنت في كل يوم وليلة أتمنى الموت كي أرتاح من هذا العذاب؟

وسؤالي للأستاذ ماهر... هل تعاقبني على جريمة ارُتكِبت في حقي؟ هل تعاقبني على هتك عرضي؟ هل تعاقبني على صمتي؟ هل تعاقبني على براءة طفل جاء إلى الحياة لينعم بنعيمها ويلهو بما يسره الله له؟ هل تعاقبني على أني فقدت أبي؟ هل تعاقبني لأني خُلقت من أسرة متوسطة لا تملك حق الدفاع عن نفسها؟

وسؤالي لك أيضًا هل من أخلاق المهنة استغلال جريمة وقعت في حقي لكسب قضية على حساب يتيمة من أجل مطالبتها بحقها في الحياة؟ أين ضميرك وأخلاقك هل ماتت من أجل حفنة جنيهات؟

وسؤالي لك ماذا كنت فاعل لو كان من هتك عرضه ابنك أو أحد ذويك وأقاربك؟ ماذا كنت فاعلًا؟

أليس من العدل يا أستاذ ماهر أن تقدم الجاني لعدالة المحاكمة؟ أم تشجعه على جرمه وتقتص من المجني عليه؟! من أجل ماذا؟ من أجل تبرئة مجرم تجرَّد من إنسانيته وهتك عرض فتاة يتيمة لا حول لها ولا قوة؟

وسؤال لك يا أستاذ ماهر، من أين حصلت على هذا الفيديو؟ أمن صديق حاقد تركني وحيدًا، وكان من المفترض أن يدافع عني، لكن لكونه جبان حاقد وقف يسجل ما وقع ليفضحني به؟

سيادة الرئيس لقد استعان الأستاذ ماهر بجرم أخلاقي لتشويه صورتي أمام عدالة المحكمة لتبرئة مجرم؟ وهنا أوجه الاتهام إلى الأستاذ ماهر بهتك عرض طفل من خلال ترويجه لفيديو إباحي استعان به بمساعدة أحد تلامذته الذي أوجه إليه الاتهام أيضًا لقيامه بتصوير وترويج فيديو إباحي يزعزع قيم المجتمع وينشر الرذيلة بين أفراده.

أوجه هذه التهمة لابن جيراني تلميذ الأستاذ ماهر زميلي الذي أتبرأ منه أمام ساحة المحكمة الأستاذ هاني، الأستاذ هاني هو

من سجّل الفيديو ونشره من خلال وسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة للضغط عليّ من أجل ترك القضية بعد أن رفضت المال، وإن سألني الجميع كيف عرفت؟ سأقول لهم لأن النافذة الوحيدة في العمارة التي كان بها تكييف في ذلك الوقت هي نافذة شقة الأستاذ هاني.

وليه هاني؟ لأنه هو الوحيد في البيت لأن والده دائم السفر لظروف عمله وأمه لديها هاتف محمول لا يحتوي على كاميرا، وقد تأكدت أيضًا بأن هاني هو من قام بالتسجيل لأني رأيت هاتفه الذي يحتوي على كاميرا وقد سلّمه أبوه أياه في حفلة عيد ميلاده التي حضرتها، وتذكرت أنا ورفقائي عندما قال له أبوه: أنتَ أول واحد يمسك تليفون بكاميرا في العيلة يا هاني، فكان حينها مصار دهشة الجميع وأنا منهم.

ومن هنا أوجّه لهاني عبد الرحمن جاري وزميلي تهمة إفشاء الرذيلة في المجتمع وتسجيل وقائع مخلة الغرض منها الابتزاز وفضح أعراض الناس.

نعم لقد رفضت رشوة الأستاذ ماهر التي عرضها عليّ في مقر مكتبه في وسط البلد وبحضور الأستاذ هاني تلميذه، ويظهر هذا التسجيل إن سمحت لي عدالة المحكمة بعرضه وسماعه وقد أستأذنت النيابة العامة قبل القيام بتسجيل الواقعة التي عرض عليّ

فيها الأستاذ ماهر والأستاذ هاني الرشوة في مقر عملهم، وهنا أوجه إليهما تهمة «الرشوة».

كما أضع بين يدي عدالة المحكمة تسجيل آخر للواء عبد الباقي الذي هددني وطلب مني الإنسحاب من القضية مقابل رشوة رفضتها مالية قام بعرضها عليّ وقد استأذنت النيابة العامة قبل إجراء هذا التسجيل.

وهنا أيضًا أوجّه تهمة الرشوة لسيادة اللواء عبد الباقي الذي أستغل نفوذه وعمله في ترويع الآمنيين وعرض عليّ رشوة مالية للانسحاب من القضية وقد رفضت وهذا التسجيل سيادة الرئيس تجده ضمن التسجيلات المرفقة والتي استأذنت عدالة المحكمة في عرضها وسماعها.

عندما رفضت سيادة الرئيس الانسحاب من القضية تعرضت للقتل على يد أحد البلطجية الذين استعانت بهم بعض القيادات الفاسدة من أجل البطش بأعدائهم، وهذا ما فعله اللواء عبد الباقي الذي أوجه إليه تهمة الرشوة والتحريض على القتل لزهق روحي من أجل كسب قضية ابنه الفاسد.

سؤال لعدالة المحكمة: إن كان أيمن ليس له أي علاقة بالقضية بعد إنكاره رمضان الميكانيكي - شريكه في الجريمة - به بعد أن أدلى بأقواله بأنه وحده من قام باستدراج الفتاة وهتك عرضها، لماذا

يدفع محامي الخصم رشوة لي لعدم الزج باسم أيمن في القضية إن كان أيمن بريء؟ ولماذا يدفع سيادة اللواء رشوة للدفاع عن ابنه الذي لم يقترف شيئًا؟

لقد قدم المحامي واللواء من خلال التسجيلات المرفقة بمذكرة القضية دليل إدانة أيمن بارتكابه الجريمة الشنيعة في حق هذه اليتيمة التي لا حول لها ولا قوة.

وأطلب من عدالة المحكمة السماح لشاهد الإثبات بالدخول لسماع أقواله وشهادته على أن تسمح عدالة المحكمة بحمايته وفقًا للقانون والدستور الذي كفل حماية الشهود خشية البطش بهم من أصحاب السلطة والنفوذ.

- اسمه إيه الشاهد يا أستاذ محمود؟

- اسمه عرفه الحرامي يا سيادة الريس.

- ضجت المحكمة بالضحك بما فيهم هيئة المحكمة إلا أن رئيس الجلسة قال بعدما تمالك نفسه: اسمه عرفه الحرامي.

- نعم يا ريس، اسمه عرفه السيد مختار واسم الشهرة عرفه الحرامي.

- إلتفت القاضي يمينًا وقال لحاجب المحكمة: نادي على الشاهد للدخول إلى قاعة المحكمة.

دخل الشاهد الذي طلبه القاضي وكانت تساعده زوجته لجلوسه على كرسي متحرك لبتر ساقيه، جلس الشاهد أمام القاضي فطلب منه بطاقة تحقيق الشخصية، ثم سأله أنت عرفه الحرامي.

- نعم سيادة الريس.

- إيه اللي حصلك يا عرفه؟

- القطار يا باشا قطع رجلي الاثنين بعد ما سقطت بين عجلاته، والحمد لله يا باشا لأن أنا عارف أن ده انتقام ربنا عشان أنا كنت رجل ظالم.

- ربنا يشفيك يا عرفه.

- أمين يا سعادة الباشا.

- احلف اليمين يا عرفة وقول والله العظيم أقول الحق.

- والله العظيم أقول الحق يا باشا.

- الأستاذ بيقول أن فيه بعض الناس دفعتك لطعن الأستاذ محمود.

نعم يا باشا طلب مني سيادة اللواء طحن الأستاذ محمود عشان يطلعني من قضية المخدرات اللي كنت ممسوك فيها، كنت يومها في الحجز وقالي يا عرفه حريتك مرهونة بقتل المحامي الأستاذ محمود إن قتلته فأنت حر طليق، وفعلًا يا باشا بعد ما طعنت الأستاذ طلعت من القضية واتقطّع المحضر.

- وإيه اللي جابك النهاردة للشهادة.

أنا يا باشا كان معايا بنت تعرضت للاغتصاب على يد أحد المراهقين، والأستاذ محمود هو اللي جاب حقها رغم أني أنا اللي كنت هقتله، وأنا من يومها وضميري مأنبني خاصة أن المتر لم يتقاضَ مليم أتعاب في القضية بعد ما شاف أرجلي مبتورة.

- وإيه اللي بتر رجلك يا عرفه؟

بعد ما طعننت الأستاذ محمود كنت مسافر لأهلي في البلد عشان عزاء ابن عمي وأنا راجع وقعت بين عجلات القطار فتم بتر الساقين يا باشا، بعدها أعلنت التوبة وفتحت كشك سجاير قدام البيت لغاية لما حصلت المصيبة لبنتي وملقتش محامي يدافع عنها إلا الأستاذ محمود لأن كل المحامين طلبوا أتعاب كبيرة وأنا مكنش عندي المقدرة أني أدفع.

لغاية لما دلني ولاد الحلال على الأستاذ محمود وعرضت عليه الموضوع وفاجأني أنه لم يتقاضَ أي أتعاب لأنه كما يلقبونه محامي البسطاء.

وأنا جيت النهارة يا باشا عشان أرد الجميل وعلى استعداد اتحمل أي عقوبة لأني كبرت وهقابل وجه كريم وكمان أنا جيت عشان أوفي الدين اللي في رقبتي للرجل اللي ستر عرضي ورجع حق بنتي.

- القاضي: هل لديك أقوال أخرى يا أستاذ محمود؟

نعم سيادة الرئيس فقد طلبت في بدء المرافعة السماح لي بالوقت وإن أطلت، سيادة الرئيس هؤلاء العصبة من الفاسدين ضربوا بقوانين الدولة عرض الحائط، فلم يتقوا الله في عرضي وسمعتي بل جاروا عليّ ظلمًا وبهتانًا.

سؤالي يا سيادة الرئيس: أكان هؤلاء يعاقبوني على براءة طفولتي؟ أم كانوا يعاقبوني على صمتي لسنوات؟ أم كانوا يعاقبوني لأن وقفت أمامهم أطالب بالدفاع عن حق هذه اليتيمة التي لم تطلب من الحياة شيء سوى الستر؟

فهل الستر جريمة يعاقب عليها القانون سيادة الرئيس؟ هل الشرف جريمة يعاقب عليها القانون؟ هل السكوت عن ظلم المجتمع جريمة؟ هل العيش تحت خط الفقر جريمة؟

هل السكوت عن الضرب والذل والإهانة داخل أسوار الملجأ جريمة؟ هل سخط المجتمع ونظرته المتدنية لأطفال الملاجيء جريمة ارتكبها هؤلاء اليتامى؟ هل عدم المطالبة بحقوقهم جريمة؟

أم هل السطو على أحلامهم مباح؟ أم الطعن في أعراضهم مباح؟ وهل استباحة أعراضهم حلال؟

هل كل من ملك المال والنفوذ في هذه البلد من حقه فعل أي شيء؟ هل من حقه ارتكاب الجرم في حق غيره مباح؟ هل السطو على غيرهم مباح؟ هل سرقة أموالهم وأعراضهم وشرفهم وحقهم مباح؟

أين نعيش نحن سيدي الريس أنعيش في دولة قانون أم نعيش في أشباه دولة أم نعيش في غابة يأكل بعضنا بعضا يأكل فيها القوي الضعيف الذي لا يملك الدفاع عن نفسه، أم نعيش في دولة ليس من حق الفقير الدفاع عن نفسه!!

أين يذهب أمثال هؤلاء؟ لمن يلوذ أمثال هؤلاء؟ لمن يشتكي أمثال هؤلاء؟ من يرفع الضيم والظلم عن أمثال هؤلاء سيدي الرئيس؟ ... أجبني بالله عليك؟

من يعطي هؤلاء حقهم إن كانت الدولة مشغولة ببناء القصور والواجهات بحثًا عن تجميل المنظر ونسيت أن هناك بشر يكفل لهم الدستور والقانون الحق في الحياة الذي سلبه أمثال هؤلاء من البشر الذين تجردوا من معنى الإنسانية ونصّبوا أنفسهم ملوك وأكاسرة.

لقد تحولوا لجبابرة سعوا في الأرض فسادًا وأصبح ما ملكته أيديهم مُباح في ظل غض الطرف من كبار المسئولين عن هؤلاء اللصوص الذين غلفوا سرقاتهم بالسياسة والمناصب التي لن تغني عنهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

من هنا من ساحة العدل التي اشتق اسمها من اسم الله العدل، أطالب عدالة المحكمة بالآتي:

أولًا: تحويل أوراق المتهمين لسيادة مفتى الديار المصرية لاتخاذ حق الشرع فيهم.

ثانيًا: أوجه تهمة الرشوة والابتزاز للواء عبد الباقي والأستاذ ماهر والأستاذ هاني.

ثالثًا: أوجه تهمة القتل العمد بالتحريض والتهديد للواء عبد الباقي.

رابعًا: أوجه تهمة الفساد وإفشاء الرذيلة للأستاذ ماهر والأستاذ هاني اللذان نشرا فيدو إباحي يحث على الرذيلة والنيل من أعراض الناس.

بعد ما عرضت وفندت يحدوني الأمل في الظفر بحق تلك اليتمة التي جار عليها الزمن والمجتمع وبطش بها أبناء الكبار الذين استباحوا كل شيء في هذه البلد بسبب نفوذ أبائهم.

القاضي: حكمت المحكمة حضوريًا بإحالة أوراق المتهمين لسيادة المفتي، والتحفظ على اللواء عبد الباقي والمحاميان ماهر وهاني لحين استكمال باقي أوراق الدعوة المرفوعة من قِبل الأستاذ محمود لإتهامهما بالرشوة والشروع في القتل، رفعت الجلسة.

النهاية